# أفياءُ الذُّروة

# وقفات تدبرية

بقلم فضيلة الشيخ
أحمد الجوهري
حفظه الله

# أفياء الذروة

قوله تعالى: {قل للذين كفروا ستغلبون}
واجه النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية الغطرسة اليهودية يومًا في المدينة، وشاء الله تعالى أن يتعالوا عليه فكسرهم ودفن رؤوسهم في الرمال.
وبمشيئة الله تعالى تعود هذه الغطرسة كما عادت تلك وبالًا على أهلها ونصرة للإسلام وأهله، رغم مكر الأعداء والحلفاء.

{قل للذين كفروا ستغلبون}
وتحقق هذا في أرض الواقع بعد بضع سنين، وكانت آية عظيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.
وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء".
ومثلما زالت غربة الإسلام الأولى ستقول غربته الحالية.

{قل للذين كفروا ستغلبون}
فليصبر المؤمنون وليوقنوا بهذا الخبر، رغم ما بهم من البلاء ستكون العاقبة لهم.

{قل للذين كفروا ستغلبون}
ويوم أذن الله تبارك وتعالى بهذا لم تنفعهم أموالهم وأولادهم وحلفاؤهم ولم تغن عنهم شيئًا.

{قل للذين كفروا ستغلبون}
والنبي صلى الله عليه وسلم يبلغهم الخبر كما هو: قل للذين كفروا، ليعلموا أنه كلام الله وليس كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل ذلك ينفع في ردعهم.

{قل للذين كفروا ستغلبون}
ولقد جاءهم هذا الوعيد وهم في غاية القوة، والنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه في غاية الضعف.

ولا يمكن أن يكون هذا إلا ممن يستند إلى ركن شديد، وهو كذلك، ومن يملك كل شيء وقادر على كل شيء، وهو كذلك.

{قل للذين كفروا ستغلبون}

والمستقبل ينتظر تلك البهجة التي سوف تدخل عليه بقدوم المظفرين من المؤمنين ليزيلوا الخبث ويطهروا الأرض وينشروا العدل والحق والتوحيد على الدنيا كلها كما تنشر الشمس أشعتها في رابعة النهار.

وإنه لآت، لا ريب فيه.

{قد كان لكم آية في فئتين التقتا}

والسعيد من وعظ بغيره، لكن الكفر يعمي ويصم، يحسب كل جيل من أهله أن حالهم سيكون أفضل من حال من سبقوه من الكافرين!

{فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة}

وهذا أول عوامل النصر: أن تقاتل هذه الفئة المؤمنة في سبيل الله.

{قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة}.

والمسلمون يومئذ قلة في العدد، ضعفة في الأبدان، ليس لهم فئة وليس لهم رجاء المدد ولا غياث لهم من البشر، خرجوا لا على وجه الحرب.

وعدوهم يعلم منهم كل ذلك.

وهو على الضد منهم في كل ذلك.

{قد كان لكم آية في فئتين التقتا}

ومن الآية أن الله قلل عدد الكافرين الكثير في أعين المسلمين، وكثر عدد المسلمين القليل في أعين الكافرين.

{قد كان لكم آية في فئتين التقتا}

ومن الآية: عزهم ونصرهم وغلبتهم كما وعدهم الله تبارك وتعالى.

قتلوا، وأسروا وسبوا، وغنموا من عدوهم.

{قد كان لكم آية في فئتين التقتا}

هذا ثاني عوامل النصر: أن يثبت الله تعالى قلوب المؤمنين ويهدئ نفوسهم ويرسخ أقدامهم.

والمؤمن مطلوب منه أن يأخذ بأسباب هذا الثبات ويعمل بها.

{قد كان لكم آية في فئتين التقتا}

فلا يغترن قوي بقوته أو ذو عدد وعدة بعدده وعدته، أو عارف بمعرفته.

{قد كان لكم آية في فئتين التقتا}

من فضل الله تعالى أنه يضرب المثل بالبعيد الشهير وبالقريب المحسوس، ليحمل هذا وهذا الناس على اتباع الحق.

فمن لم ينفع معه مثال فرعون وجنده نفع معه مثال أبي جهل وقومه.

وهكذا للحق في كل زمن ومكان آيات.

{قد كان لكم آية في فئتين التقتا}

آية عظيمة، في كل مضامينها، ونواحي عظمتها لا تحصى، من حيث الزمان والمكان والأشخاص والترتيب والآثار.. فالحمد لله على أن خصنا بتلك العظمة.

{قد كان لكم آية في فئتين التقتا}

إن الله تعالى قادر على نصرك - أيها المؤمن - ولو بغير أسباب، وقادر على هزيمتك - أيها الكافر - ولو معك كل الأسباب.

فليست الأسباب المادية هي كل شيء في المعركة بين الحق والباطل.

{قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة}.

ومن عوامل النصر: أن تكون الجماعة المسلمة فئة موحدة في غايتها وأهدافها، في طريقها وسبيلها، في عملها وحركتها.

تسعى كلها للتعاون والاحتماء ببعضها البعض فردًا فردًا، كما توحي بذلك كلمة فئة، وفيها الفيء: الرجوع.

وفي التنزيل: {ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفًا لقتال او متحيزًا إلى فئة}.

{فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة}

ومن قاتل في سبيل الله مؤمن، ومن كفر قاتل في سبيل الشيطان.

إن العلاقة وطيدة بين الإيمان وسبيل الله، وبين الكفر وسبيل الشيطان إلى هذه الدرجة التي يدل أحد الشيئين فيها على قرينه الآخر.

{يرونهم مثليهم رأي العين}

من عوامل النصر على الأعداء: تهوين من شأن الأعداء في قلوب المؤمنين تهوينًا يذهب الرهبة منهم من قلوب المؤمنين.

{يرونهم مثليهم رأي العين}

ومن عوامل النصر: الرعب، وهو خاصة خص الله تبارك وتعالى بها هذه الأمة، يوقع الرعب منهم في قلوب عدوهم فينهزم الأعداء عند لقائهم، وربما قبله.

{يرونهم مثليهم رأي العين}

ويا لحسرة الكافرين مرتين:

- عندما تبدأ المعركة فيجدون المسلمين الذين كانوا في نظرهم قلة قبل المعركة صاروا كثرة كاثرة!

- وعندما تنتهي المعركة فيتحققون أنهم قلة ويتساءلون كيف هزمتهم هذه القلة؟!

{والله يؤيد بنصره من يشاء}

يقوي تعالى ويعين، ولهذا أسبابه من أخذ بها قوي وأعين.

ومن ذا الذي يقدر على الوقوف في وجه من قواه وأعانه الله!

{إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار}

جمع الله تعالى لهم البصر والبصيرة فرأوا بأعينهم وعقلوا بألبابهم ما به بلغوا النصر وحصلوا الظفر.

{إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار}

وإذا لبَّس على بصيرة لم ينفع صاحبها نفاذ بصره، وإذا فتح أسرار آخر فلا يضره انسداد بصيرته.

فهذا حال الفئة الأولى وحال الثانية.

{إن في ذلك لعبرة}

بفهم هذه الآيات عن الله ورسوله يعبر الإنسان من منزلة الجهل إلى العلم.

{إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار}

والعبَر قائمة في الليل والنهار، وهي بحاجة إلى:

- بصر يدقق.
- وبصيرة تتدبر.

وعندها تعيها العقول والقلوب.

{والخيل المسومة}

امتن الشارع الكريم علينا بالخيل، وزينها للناس، ومدحها وأقسم بها، وهي: عدة القتال، وأداة العز، وأمارة العظمة.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة".

{إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا "والله وليهما" وعلى الله فليتوكل المؤمنون}

رب محنة جرت إلى منحة لولا أنك امتحنت ما كنت وصلت إليها ولا حلمت بها.

{وما النصر إلا من عند الله..}

ومن دلائل ذلك:

- {سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب}، وهذا من أقوى عوامل النصر للمؤمنين.
- {إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما}، فالله هو الذي ثبتهما.
- {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة}، فأخبر أنهم في بدر ما كانوا استعدوا وانتصروا، وفي أحد كانوا مستعدين وانهزموا، ليست المسألة في العدد والعدة إنما المسألة في العمل بأوامر الله ورسوله وعدم مخالفتها ومنها بذل الوسع في الإعداد.

ولعل مما يشير إلى ذلك: كثرة الحديث عن التقوى في حديث السورة عن الغزوة:

- {فاتقوا الله لعلكم تشكرون}.
- {بلى إن تصبروا وتتقوا}.
- {واتقوا النار}.
- {أعدت للمتقين}.
- {وموعظة للمتقين}.
- {للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم}.
- {وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم}.

وبهذه الجملة الأخيرة ختم حديث السورة عن أحداث الغزوة.

استوقفتني هذه الآية: {قد خلت من قبلكم سنن}، ما سبقها من كلام هو:

- {ضربت عليهم الذلة..} عن أهل الكتاب.
- {ليس لك من الأمر شيء..} عن الكافرين.
- {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا}.. عن المؤمنين.

خوفهم بعذاب الأمم ليعتبروا فينتهي الكتابيون عن شركهم، والوثنيون عن كفرهم، والعصاة من المسلمين عن عصيانهم.

فهي عامة في هؤلاء جميعًا كما يدل عليه موضعها وما بعده، والله أعلم.

وفي قوله تعالى: {قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} بشارة ونذارة:

- بشارة للموافقين من المصدقين المتبعين المطيعين: أن الله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم ومعينهم.

وليست الحال الراهنة من الضعف والذلة بدائمة، بل العاقبة للمتقين.

- ونذارة للمخالفين من الكافرين والمنافقين والعاصين: أن الله تعالى يذهب بهم ويمحقهم ويهلكهم.

وليست الحالة الراهنة من القوة بمستمرة، والأيام دول، وقديمًا أدال الله المكذبين على المؤمنين، ولكن انظروا كيف هلك المكذبون بعد ذلك، فكذلك تكون عاقبتكم.

من لم يقدر على السير ليرى الآثار بعيني بصره فليقرأ الأخبار بعيني فكره: {فسيروا في الأرض فانظروا..}.

وفي هذا حث لطائفتين:

- من رأى لينقل لمن لم ير.
- ومن قرأ لينقل لمن لم يقرأ ليفكر.

{ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون}.

يتمنى المرء العمل عن بعد سهلًا ويحدث به نفسه في يسر، ثم تأتي ساعة الجد فإذا ما في الخيال وما في الواقع متقابلين وجهًا لوجه:

- كان يتمنى أن يأتي رمضان ليعمل وقد جاء رمضان.
- كان يتمنى الليل ليقوم وقد دخل الليل.

- كان يتمنى الزواج ليستقيم وقد تزوج..
- كان يتمنى أن يتفرغ لطلب العلم وقد تفرغ.
وغيرها من الأماني..
فهل - يا ترى - تتحقق الأماني وتصدق الوعود أم تنهزم عند مواجهة الواقع وتتسرب؟!
تعود على أن تزن وعودك وأمانيك بميزان واقعي، فإن هذا هو صراط الاستقامة والنجاة، ولا تغرك الأماني والوعود عن العمل فهذه سبيل الكاذبين والهالكين.

{ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}.
إن الكافر يقيس الأمور بمعايير الماديات وفي حدود الدنيا، والمؤمن يقيسها بمعايير شاملة للماديات والمعنويات واسعة بسعة الدنيا والآخرة معًا.
ومن ثم فإن ستين إلى سبعين سنة في جملة هذه المدة العظيمة التي تنتج من مجموع الدنيا والآخرة ليست بشيء..
وإن عاشها المسلم في كرب مرة أو مرات ونزلت به المصائب والخطوب كرات..
ولو جرح في أثناء ذلك أو قتل، ما دام: قائمًا على دينه، ثابتًا على مبدئه، ساعيًا إلى هدفه، آخذًا بما هو مأمور به من أسباب.
وإن ما يجده في أثناء ذلك من سعادة وسرور وراحة ونعيم ليفوق الوصف ولا تقدر على نقله الكلمات مهما تعددت وكانت فصيحة بليغة.
هذا تفكير المسلم - أو ينبغي أن يكون -، ولهذا تطالبه الآية الكريمة بهذين الطلبين وتخبره بهذا الخبر، وكلها مما يعده الكافر من عالم الخيال: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون} يعني العالين.

من معهود الخطاب القرآني:
١- أن يحدثنا الله تبارك وتعالى بما نعلمه من خلقه: {عرضها السماوات والأرض}، {كعرض السماء والأرض}، وهما أوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه، {ما دامت السماوات والأرض}، وهما أطول ما علمه الناس من خلقه وأبقاه.
٢- أن يحدثنا الله تبارك وتعالى على عادة العرب في أساليب كلامها: {إن تستغفر لهم سبعين مرة}، ذكر السبعين حسمًا لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

{فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة}.
أعطاهم الأمرين:

- ثواب الدنيا.
- و [حسن] ثواب الآخرة.

نعم، خص ثواب الآخرة بالحسن، يغرينا تبارك وتعالى بإرادته وطلبه لفضله وتقدمه وهو خير وأبقى، وهذه الآية مع قوله تعالى: {والله يريد الآخرة} تخبر أن ذلك هو المعتد به عنده عز وجل.

سورة آل عمران نصفان:

- نصف يحاور أهل الكتاب.
- ونصف يتحدث عن غزوة أحد.

والنصفان يجتمعان في الدعوة للثبات على الحق وبيان عوامل ذلك.

ربما قرأنا آية من القرآن نحسب أن عصرها انقضى، والحقيقة أنها لكل وقت إلى يوم القيامة، اقرأ قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين}، {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين}.

وهذه آراؤهم ونصائحهم تعصف بالمسلمين - دينًا ودنيًا - يتمندلون بنا، والواقع أنهم لا يستطيعون ذلك إلا إذا ضعف لدينا نحن اليقين بأن هذا الدين حق وأن القرآن صدق وأنه لكل وقت وكل مكان وكل حال وكل شخص.

ولهذا جاءت الآية الأولى بعد اهتزاز المجاهدين في أحد لما انتشر خبر قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسب بعضهم أن الدين قد انتهى هنا.

أما آن للأمة التي جربت الشرق والغرب فما أفلحت أن تقتنع بتجربتها الرائدة مع الإسلام يوم استمسكت به فعزت وقويت وعلت وارتفعت وسمعت كلمتها في أركان الدنيا وفازت بثواب الدنيا ولها - بوعد الله ورسوله - حسن ثواب الآخرة!

على أن الأمر لا يحتاج إلى تجربة عند من يعقل عن الله ورسوله، فقد نهانا الله عن طاعتهم وأمرنا بولايته وطاعته ووعدنا على ذلك النصرة: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين، بل الله مولاكم وهو خير الناصرين}.

إن الله تعالى خير من ينصر ومن نصره فلا يغلب، مع حفظ الكرامة وصيانة الوجه في الدنيا وضمانة السعادة في الآخرة.

{سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب...}

سنة الله تبارك وتعالى في نصرة الرسول ﷺ بالرعب باقية ماضية في أوليائه إلى يوم القيامة: يطرح الهيبة منهم في قلوب أعدائهم متى صدقوا الله تعالى واستقاموا على عهده وتمسكوا بطاعته.

فإذا عدموا ذلك كانوا - كما نرى - غثاء كغثاء السيل، قد نزع الله من صدور عدوهم المهابة منهم، وقذف في قلوبهم الوَهْن.

جاء في بدائع السلك في طبائع الملك للأصبحي الأندلسي: أن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - في رسالة طويلة - "أما بعد: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدّة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينتصر المسلمون بمعصية عدوهم لله؛ ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدّتنا كعدّتهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا لم ننصر عليهم بفضلنا ولم نغلبهم بقوتنا.

سبحان الله، كأن الذي حدث مع المسلمين في أحد هو الذي حدث مع طالوت وجنوده في خروجه وقتاله مع جالوت: تمت تصفية الجيش مرات مع طالوت، وكذلك مع نبينا صلى الله عليه وسلم.

لكن لما كانت تصفية جيش طالوت قد تمت قبل دخول أرض المعركة وبقي خالصو المؤمنين معه.. تحقق لهم النصر على عدوهم، ولما بقيت بقية في صفوف جيش المسلمين بأحد ولم تظهر إلا في أرض المعركة.. انهزموا.

والله أعلم.

{سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب..}

النصر من عند الله تبارك وتعالى، فهو الذي يملك أسبابه المعنوية - في القلب والنفس والروح -، والمادية - في البر والبحر والجو -.

وهذا الرعب سبب منها يسلطه الله للمؤمنين على أعدائهم فينهزموا.

جذبتني كلمة (صرفكم) في قول الله تعالى: {ثم صرفكم عنهم ليبتليكم}، فلم يسمها هزيمة ويقول: (هزمتم) مثلًا وإنما قال: {صرفكم} وهي أيضًا توحي أن النصر كان فوق رؤوسهم ينتظر أسبابه وقد بدت بشائره كما أخبرت الآية: {ولقد صدقكم الله وعده إذا تحسونهم بإذنه..}، وهو في سبيله إلى التمام والكمال إن استمروا على حالهم ففي الحديث: «لكم النصر إن صبرتم».

نعم، لم تكن هزيمة للمسلمين فلم ينتصر عليهم المشركون إذ لم يتمكنوا منهم ولهذا فكروا في الكر على المسلمين بعدما انصرفوا عائدين إلى مكة لولا أن ألقى الله الرعب في نفوسهم، ولم يول المسلمون الأدبار ولكن كانت الخسائر في النفوس منهم أكثر.

العاقل يستفيد من تجاربه حسنها وسيئها، تصيبه المصيبة الشديدة، فيقول: قد وقعت، وبكل حال لن ترتفع كأنها ما وقعت، فالواجب علي الآن شيئان: التفكير في كيفية الخروج منها، وكيف أستفيد من وقوعها.
وفي قول الله تعالى: {فأثابكم غمًّا بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم} إشارة إلى بعض هذا المعنى: درَّبهم الله تعالى بهذا على تجرُّع الغموم واحتمال الشدائد فلا يحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار.

في أوقات الشدائد والمحن يلقي الله تبارك وتعالى على قلوب أهل اليقين أمانًا لا يشعر به غيرهم: {ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة} ويكون نصيب كل منهم من ذلك الأمان بقدر رتبته في اليقين.

بقدر ما في قلبك من إيمان يكون ثباتك وبقدر ما يكون فيه من وهن يكون زلزالك:
- {سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا}.
- {إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا}.

أهل الإيمان أهل يقين وطمأنينة وتسليم وثبات، وأهل النفاق أهل ظنون وريب وجدال وذبذبة.
{ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسًا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية..} الآيات.

صاحب الاعتقاد السليم يصيبه ما يصيبه من فقد ونقص ويفوته ما يفوته من ربح ومغنم وينزل به ما ينزل من هم وكرب فيبقى هادئًا مطمئنًا ويأنس إلى أن ما قدره الله تعالى سيكون.
وغيره تسكنه الحسرة ويملؤه الحزن وتحيط به الندامة وتفرق قلبه الهموم وتأكله الظنون: لو كان كذا وكذا لكان كذا وكذا..

{يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحي ويميت والله بما تعملون بصير}.
احذر عدوك في كل وقت وفي وقت الضعف كن أشد حذرًا منه.

وتجنب سماعه في كل حين وفي حين الهزيمة كن أعظم تجنبًا له.
وابتعد عن إغوائه وإغرائه ونصحه ومشورته على الدوام وكن وقت نزول الكرب وحلول الهم واستيلاء الضيق عليك أكثر ابتعادًا عنه.
فإني رأيت الله تبارك وتعالى يقول للمسلمين في ظرف غزوة أحد: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين}.

{وشاورهم في الأمر}
شاور في أمورك ولا تستنكف، واختر لمشورتك ذا علم وأمانة، فإن استشارة الجاهل لا فائدة منها ولا معنى لها واستشارة الخائن لا تهدي بل تضل.

{فبما رحمة من الله لنت لهم} تصور الآن كم كان قدر ذلك اللين إذا كان الله تبارك وتعالى هو الذي جعله في نبيه صلى الله عليه وسلم برحمة منه.

أحوج ما تكون إلى استحضار الخلق الحسن وبذل السماحة في المعاملة: وقت وقوع الإيذاء ونزول الكرب، وحلول المصيبة، وشدة الهم والغم والحزن.
ولهذا كان هذا الأمر الإلهي وسط أحداث غزوة أحد لنبيه صلى الله عليه وسلم وجراح جسده تثعب دمًا-:
{فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم..}.

من الناس من يجود بحقه ويتنازل عنه لمن أساء إليه أو آذاه.
ومنهم من يبلغ كرمه المنتهى فيسعى لدى غيره ليتنازل هو الآخر عن حقه ويعفو ويصفح، إتمامًا للشفقة عليه.
ومنه قوله تعالى - يعلم نبيه صلى الله عليه وسلم معالي الأمور -: {فاعف عنهم} أي: في حقك وما يختص بك، {واستغفر لهم} في حقي وما يختص بي.

من ينصره الله فلا غالب له ومن خذله الله فلا ناصر له، فمتى وقعت بينك وبين أحد خصومة فكن في صف الله تعالى:
- اعرف مكانك من الشرع والزمه.
- وتصرف معه بمقتضى الشرع وطبقه.
- واستعن بربك وتوكل عليه.
- وخذ بأسباب النصر والظفر.

- وخذ بأسباب الدفع المقدورة لك.

ولا يضرك ما يحدث بعد هذا: {إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون}.

لا تظنن أنك تنال منالًا تحبه أو تتجنب شيئًا تكرهه إلا بالله، ولا تظنن أنه يصل إليك شر أو يحال بينك وبين خير إلا بالله.

فحيثما أردت شيئًا فاطلبه منه فإن علمه خيرًا لك آتاك إياه وإن علمه شرًّا لك صرفه عنك: {إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون}.

نصر الله المؤمنين يوم "بدر" فلم يقدر أحد على أن يرد نصره لهم: {إن ينصركم الله فلا غالب لكم}، وما نصرهم حين نصرهم إلا بقيامهم على الطاعة وعملهم بالتقوى.

وخذلهم يوم "أحُد" فلم يقدر أحَد على أن يرد خذلانه لهم: {وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده}، وما خذلهم حين خذلهم إلا بتركهم الطاعة وعملهم بالمعصية.

فمن أراد أن يفوز بسعادة الدنيا والآخرة سعادة لا شقاوة معها، ويعز عزًّا لا ذل معه، ويصير غالبًا لا يغلبه أحد.. فليعمل بطاعة الله وليجتنب معصيته.

خرج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا فارغًا، من الوحي والمال معًا، لم يبق عنده صلى الله عليه وسلم شيء منهما إلا قد أداه، الكبير منه والصغير والكثير والقليل.

وفي الحديث: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وبْرة من جنب بعير، فقال: «يا أيها الناس، إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»، وفي الحديث: «إنه ليس شيء يقربكم إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم إلى النار إلا قد نهيتكم عنه».

وإلى هذا المعنى أشار قول الله تعالى: {وما كان لنبي أن يَغل}، وعلى سَننه يجب أن يكون أتباعه: {قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني}، فيا أيها الدعاة: موتوا فارغين - على الأقل - من ناحية الدين!

لا يجعل الله من أطاعه واتبع أمره مثل من عصى واتبع هواه، وهذه مقامات كبيرة حملت بعضهم - وهو سفيان الثوري - على أن يقول: "وا سوأتاه منك وإن عفوت".

فاجتهد أن تلقى الله تعالى وهو راض عنك، واحذر سخطه وعذابه فإن الله تبارك وتعالى يقول: {أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير}.

وهذا سؤال "يقول: فمن كان على طاعتي وثوابه الجنة ورضوان ربه، كمن باء بسخط من الله فاستوجب غضبه، وكان مأواه جهنم، وبئس المصير. أسواء المثلان؟! أي: فاعرفوا".

الساعي في سبيل رضى الله تعالى في علو وتقدم، فائتماره وانتهاؤه وامتثاله: رفعة، والساعي في سبيل الشيطان في سفول وتخلف، فعصيانه وتمرده: انتكاسة.
قال تعالى: {أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير}.

لن تتوقف المنازل عند الفرق بين المؤمنين والكافرين ليكون هذا في النعيم وهذا في الجحيم.
بل إن للمؤمنين في النعيم درجات وللكافرين والمنافقين في الجحيم دركات {هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون}.
اسع إلى الله تعالى سعي من يطلب الدرجات العلا والمنازل الرفيعة، لا ترض بالدون في آخرتك بينما تحرص على العلا في دنياك، وفي الحديث: "إذا سألتم الله تعالى فسلوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن".

مهما يكن عندك من وقت - ولو يسير - اقضه في الخير: صل ركعتين، ادع عاصيًا، اذكر الله، ذكّر ناسيًا، مُر بالمعروف، ادعُ لإخوانك المستضعفين، تذكّر المأسورين، بلغ آية، ادفع شبهة، حذّر من شرٍّ.
كل ذلك وأقل منه وأقل زيادة في الدرجات ورفعة في المراتب ولن يضيع عند الله عز وجل شيء: {هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون}، لا يخفى عليه شيء من عملك، يحصي عليك جميع أعمالك.

إذا كانت المنازل تشرف بمواقعها - قربها من نهر، إطلالتها على بستان، وجودها في هواء طلق، بعدها عن الزحام، جوارها لفلان وفلان -.. فما ظنك بمنازل ودرجات {عند الله} أي تشريف وتفضيل فوق هذا التفضيل!

{لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم}.
فضل الله تبارك وتعالى ونعمته وطوله ومنته على العباد عظيمة، متنوعة، متفاوتة.
وفي القرآن الكريم تذكير دائم بهذا كله، وينبغي على العبد أن يلتفت إلى هذا كله أثناء المرور عليه، يلاحظ الدنيوي منه والديني، والعاجل والآجل، والظاهر والباطن، والمادي والأدبي، والخاص والعام والقاصر والمتعدي والمتجدد والدائم.. إلخ.
وهذا سبيل من سبل زيادة الإيمان وقوته ورسوخه.
{يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة}.

من فضل الله تبارك وتعالى على الداعية: أن يكون بصيرًا بغايته، ملمًّا بأهدافه، عارفًا بوسائله، عالمًا بالأسلوب المناسب لكل موقف.

وكلما كان في ذلك كله أرسخ معرفة كان أقوى أثرًا في المدعوين.

{وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}

اجعل من أهدافك: قراءة المعلقات وغيرها من أشعار العرب، وكذا في مطالعة منثوراتهم وأخبارهم وقصصهم، من أجل:

أن تتعرف على الجاهلية، وفساد معتقدها، وسوء عاداتها، وعظيم قبحها.

فإن به يتبين لك حسن الإسلام وفضله وخيره وعظمته، والضد يظهر حسنَه الضدُّ.

{أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم..}

قبيح بالعبد تنزل به المصيبة أن يجزع ويسخط ويقول ما لا يرضي الله عز وجل ويفعل ما يغضبه، ولو أنه تذكر:

- أن ما يقابل هذا من نعم الله تبارك وتعالى كثير.

- وأن هذا الذي أصابه وراءه حكمة من عقاب على ذنب وتكفير أو رفعة درجات وتكثير حسنات.

لقدر على مواجهة البلاء والصبر عليه والفوز بالأجر العظيم الموعود للصابرين.

{قل هو من عند أنفسكم}

ينتصر المسلمون على عدوهم دائمًا بإيمانهم - هم في كل زمان ومكان لم يصلحوا ولا يصلحون بغير دين - مع إعداد العدة التي يقدرون عليها.

إن النصر من عند الله عز وجل وهو الذي أخذ عليهم هذا الشرط لينزل عليهم نصره فإن عملوا به نصرهم وإن عصوا أمره وخالفوا منهجه تركهم للأسباب المادية فغلبهم عدوهم بعدته وعدده.

{قل هو من عند أنفسكم}

من يقظة القلب عند نزول المصيبة: أن يتوجه إلى نفسه باللوم والعتاب ويفحص الأسباب التي لأجلها نزلت به من خطأ وتقصير وعصيان.

خلاف ما يصنعه بعض الناس: يتوجه بالتهمة إلى ربه عز وجل، ويقول - من جهله -: لم، وكيف، وبم؟!

وخير منهما من يتوجه إلى ربه تبارك وتعالى بالشكر: يرى في البلاء نعمة وفي المصيبة عطية وفي المحنة منحة.

على حد قول بعضهم:

ولئن ساءني أن نلتني بمضرة

فلقد سرني أني خطرت ببالك.

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه لما نزل به الطاعون يقول - وهو يغمى عليه ويفيد-: "اشدد شدك فوعزتك إني أحبك".

{وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله}.

المسلم يقيم نفسه على وفق قانون الله تعالى في الكون والحياة.

فهو يعلم أن هذا القانون ذو حكمة بالغة وأنه لا يحابي أحدًا، وأن الاستقامة عليه من تمام إسلام الوجه لله عز وجل، وأنه لن يحصل ما يرجوه ويبلغ ما يؤمله إلا بواسطته.

فإذا لم يتحقق ذلك المرجو المأمول فمعناه أنه قصر ويجب عليه رفع التقصير، وأن من وراء تخلفه - مع كونه مسلمًا - حكمة ينبغي الالتفات إليها والعمل بموجبها.

{وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا}

تمايز صفوف المسلمين بين مؤمنين - المسلمون في الظاهر والباطن - ومنافقين - المسلمون في الظاهر دون الباطن -.

فإن معرفة المؤمن من المنافق تجعل المؤمنين يحذرونهم ويبتعدون عن شرورهم، ولذلك كان شر الكافر دون شر المنافق، ومن أجل هذا حدثنا الله تعالى في سورة البقرة عن الكافرين في آيتين وحدثنا عن المنافقين في ثلاث عشرة آية.

{وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله}

وما أذن الله به هو عن علم وكتابة ومشيئة وتقدير ومن ورائه حكمة عظيمة يسلم لما تأتي به كل ذي عقل على أن ما يظهر له منها إنما هو بعضها وما خفي كثير.

وبهذا يرضى المؤمنون وتقر عيونهم ويتسلون وتهدأ خواطرهم فإن ما يأتي بإذن الله - وإن كان مصيبة - أحلى من العسل وأشهى من الماء البارد على الظمأ.

تأتي المحن والابتلاءات فتكشف عن معادن الناس: هذا محسن وهذا مؤمن وهذا مسلم وهذا منافق ..

وإذا كان أهل الإسلام يتفاوتون في الدرجات لكنهم جميعًا في باب الإسلام ثابتون بخلاف أهل النفاق فهم في ريبهم يترددون:

- إذا وجدوا ما في الإسلام ما ينفعهم أقاموا عليه.

- وإذا وجدوا فيه شدة ومحنة انفضوا عنه وانصرفوا..

ولعل هذا هو السبب الذي لأجله جاء في الآية الكريمة: {وليعلم المؤمنين} بالاسم الذي يدل على الثبوت، {وليعلم الذين نافقوا} بالفعل الذي يدل على التجدد.

{قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا}.

تتنوع الأدوار التي يقوم بها كل مسلم ومسلمة في مهمة الدفاع عن هذا الدين.

الكل مطلوب في هذه المهمة، لا يحل لأحد أن يتأخر، ولو في تكثير سواد العاملين، إنه الدليل الذي يدل على أن هذا المسلم يستظل بهذه المظلة وأن هذا الفرد جزء من هذا المجموع.

{يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم}

المسلم يبتعد عن قول ما يخالف فعله، ويبتعد عن قول يقوله بلسانه لا يوافق ما في قلبه، ويجتهد في تحسين باطنه كما يجتهد في تحسين ظاهره، ويتعامل مع الواقع المحيط به بما يناسبه من المأمورات والمنهيات الشرعية، ويرتب لمستقبله حسب رؤية شرعية متكاملة وليس حسب هواه، ولا يبث الفرقة في صفوف المسلمين ويفت في عضدهم وعزائمهم وقت الأزمات ينساق بهذا إلى أهوائه ويسارع فيما يحمده عليه الكافرون.

وشأن المنافق بخلاف هذا كله: {يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا}، {لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا}، {وما كان لنبي أن يغل}، {لو نعلم قتالًا لاتبعناكم}، {لو أطاعونا ما قتلوا}.

{الذين قالوا لإخوانهم - وقعدوا -: لو أطاعونا ما قتلوا}

تخيَّر إخوانك من أهل الدين والطاعة، واستكثر منهم ما استطعت، فأنت بنفسك قليل وبهم كثير، وهم أصدق في اليسر والعسر وفي الحياة والممات من إخوة النسب والقرابة.

فإن اجتمعت - الديانة والطاعة والنسب والقرابة - فهي الغاية التي ليس فوقها غاية.

{الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا}

أعيذك بالله من النفاق، وأعيذك بالله ثم أعيذ بالله ثم أعيذك بالله من النفاق إذا انضم إليه علم اللسان، لقد قعد المنافقون واحتجوا لقعودهم: {لو نعلم قتالا لاتبعناكم} وثبطوا غيرهم واحتجوا لتثبيطهم: {لو أطاعونا ما قتلوا}.

ولا غرو ففي الحديث الشريف: «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي: كل منافق عليم اللسان»، «أخوف ما أخاف على أمتي: الأئمة المضلون».

{الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت}

القتل والموت، الكل بقضاء الله تعالى وقدره.

ومن لم يكن قادرًا على دفع الموت عن نفسه فلن يقدر على دفع القتل عنها وعن غيره.
إن الحذر عن المكاره والوصول إلى المطالب إنما هو بإذن الله تعالى وحده، وإذا كان الأمر كذلك فلم الجبن ولم الخوف ولم الفرار؟!
ولهذا فإن المؤمن بقضاء الله وقدره لن تروج عليه تلك الأراجيف.

{ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا}
لما قال المنافقون عن الشهداء موتى وقتلى: {لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا}، {لو أطاعونا ما قتلوا}، رد الله تعالى عليهم قولهم هذا بقوله: {ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات}، {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء}.
- نهى أن يقال عنهم: أموات.
- ونهى أن يظن بهم هذا مجرد ظن!
فـ"المقتول في سبيل الله تعالى أحياه الله بعد القتل، وخصه بدرجات القربة والكرامة، وأعطاه أفضل أنواع الرزق، وأوصله إلى أجل مراتب الفرح والسرور".

{ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون.. }.
هذا تهييج من الله تعالى للباقين من أجل أن يلحقوا بالسابقين من إخوانهم.
فمتى علم المسلمون أن إخوانهم الذين سبقوهم إلى الشهادة في الرَّفَه والنعمة وهم ينتظرونهم لينالوا منها مثل ما نالهم.. لم يهنأوا بعيش دون التأهب للظفر بمقامهم وعجلوا في أقرب فرصة للإلمام بهم والنزول عليهم.

{بل أحياء}
الموت ليس نهاية المطاف، وقد تعوّد الناس على أن يقولوا: "ذهب فلان إلى مثواه الأخير"، وهي جملة لها محمل صواب ومحمل خطأ، وما يخشى من معناها الخطأ يجعلنا نؤثر الابتعاد عنها.
وكذا الموت ليس حاجزًا بين مرحلة ومرحلة وهو ما توضحه هذه الآيات: {أحياء}، {يرزقون}، {فرحين}، {يستبشرون} إلا أن يكون حاجزًا بين حياة وحياة هي أتم منها وأكمل وأفضل وأبقى وأرفع.
إنها حياة عظيمة ومكانة رفيعة ليس فيها ما يجعل الشخص الذي في الدنيا يتحسر على فقد صاحبه الذي نالها، بل إنه ليغبطه.
وليس ينقص هذه الحياة شيء يجعل من فيها يندم عليها بل إنه ليتمنى العودة إلى الدنيا ليقتل في سبيل الله تعالى من جديد لينالها.

{فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون..}

- الشهداء يفرحون ويستبشرون..
- يفرحون بالحياة والرزق، ويستبشرون بدوامهما
- يفرحون بوجود ذلك في الحال ويستبشرون بوجوده في المآل.
- وأيضًا هم يستبشرون بأنفسهم ويستبشرون بإخوانهم.
- وأيضًا هم يفرحون بظفرهم كشهداء ويستبشرون بجهاد إخوانهم من ورائهم نصرة للدين وسعيًا للحاق بهم في جنات النعيم.
- وأيضًا يفرحون بنعمة الله تعالى عليهم ويستبشرون بفضل من الله تعالى زيادة عليها.

{ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم}

من صفة المؤمن الكامل: أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه كما ورد في الحديث الشريف.

والشهداء الكرام يضربون لنا المثل الأعلى من أنفسهم في هذه الصفة الرفيعة مثلما حكى الله تعالى عن مؤمن آل يس: {قيل: ادخل الجنة، قال: يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربي وجعلني من المرسلين}.

وقال هنا عن شهداء بدر وأحد: {ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.

ومن لطيف التفسير: أن في الذين لم يلحقوا بهم هؤلاء قولين:

- أنهم الصحابة الذين تركوهم وراءهم.
- أنهم الأمة كلها من كان منها في زمانهم ومن يأتي إلى يوم القيامة.

وكأنهم - على هذا القول الأخير - يكافئون اللاحقين ويجازونهم على ما يصلهم منهم من خير جاء في قوله تعالى: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم}.

{ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم}

وأولئك الذين من خلفهم ماذا سيفعلون ليلحقوا بهم ويكونوا معهم في منازلهم؟

لا ريب أنهم سيجاهدون مثل جهادهم، وفي جهادهم هذا نصرة الدين.

ألا يوحي ذلك بأن أولئك الشهداء - وهم هناك في جنات النعيم - يحرضون على نصرة الدين؟ فهم إذ تمنوا أن يقوموا بهذا بأنفسهم - يعودون إلى الحياة الدنيا ليقاتلوا في سبيل الله وإن قتلوا مرات - ومنعوا.. بعثوا برسالة إلى إخوانهم أن قوموا بهذا الواجب ولا تتوانوا فيع واعلموا أن البشرى تنتصركم

ويكأنهم - جميعًا - سعد بن الربيع الذي أرسل مع صاحب له برسالة إلى قومه من الأنصار وهو يجود بأنفاسه الأخيرة: "لا عذر لكم إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف".

{ويستبشرون} {يستبشرون}

من كمال أحوال أولئك الشهداء الكرام وجميل صفاتهم فيما قص الله تبارك وتعالى علينا:

أنهم يستبشرون بإخوانهم قبل أن يستبشروا بأنفسهم، فكأنهم لم تكتمل فرحتهم ولم تقر عيونهم بنعمة الله تعالى عليهم إلا بعدما اطمأنوا على إخوانهم من ورائهم وعلى مضيهم في طريق نصرة الدين وطريق سعادتهم وفوزهم.

{من بعد ما أصابهم القرح...}.

التضحيات العظيمة لها وزنها عند الله تعالى، خاصة تلك التي تكون وقت الأزمات والشدائد والمحن الثقيلة ومع الضيق والكرب والشدة والعسر، وقاعدة الشرع المستقرة: "الجزاء من جنس العمل"، ثم يكون الفضل من الله تعالى والزيادة.

وقد ذكرت هذه الآيات منحًا من الله تبارك وتعالى لهؤلاء المستجيبين: {أجر عظيم} {بنعمة من الله} {وفضل} {لم يمسسهم سوء} {واتبعوا رضوان الله}.

{وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل}

الله عز وجل نعم المولى لمن وليه وكفل، فتوكل عليه في كل شؤونك وأسند إليه القيام بجميع أمورك وفوّض إليه كل صغير وكبير وقليل وكثير، وثق به فهو سبحانه نعم الوكيل.

{الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا..}

من كان الله معه فلن يضره أحد ومن تخلى عنه الله فلن ينفعه أحد، وما كان لمؤمن بالله مصدق بكتابه ونبيه أن يؤثر على معية الله معية أحد من الناس.

وليوطن نفسه على أن يجعل الله مفزعه وملجأه دائمًا في اليسر والرخاء والسعة حتى يعود نفسه فتكون كذلك في النوائب والحوادث وعند العسر والشدة والضيق.

{فزادهم إيمانًا}

والمؤمن تزيده الشدائد تصديقًا ويقينًا في دينه وإقامة على نصرته وقوة وجراءة واستعدادًا على المضي في سبيله، فقد سبق الخبر من ربه تعالى إليه بأن كل ذلك كائن، وأنه كما كان فسوف يزول، وأنه في الحالين بإذن الله تعالى، وأن العاقبة في النهاية لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين، رأى هذا بعينيه وعاش إلى حين تحققه أم مضى إلى ربه عاملًا ثابتًا صادقًا ومن بعده يكمل الطريق.

{إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه}

مما يعضد به الشيطان أولياءه ويؤيدهم به: إلقاء الخوف في قلوب المؤمنين منهم، تراه يقول للمؤمن: مع عدوك العدد ومعه العدة ومعه المؤنة، والخير في البقاء تحت سيطرته وعدم مقاومته، وأنتم ضعفاء معدمون..

فأما من صدق فإنه يقيس كلامه بميزان الإيمان فيجد أن الشيطان والأعداء في هذا الميزان ليسوا بشيء فإن رب العالمين سبحانه وتعالى معهم فمن يقوى عليهم والله عز وجل معهم؟!

وأما غير الصادق فيضعف ويستكين لعدوه ويخضع وهنالك تكون مقبرة إيمان وأحلامه في حاضره ومستقبله.

{فلا تخافوهم وخافون}

لا ينبغي أن يكون الخوف ممن يملك العدة والعدد بأقوى من الخوف ممن يهيمن على قلب هذا المالك، وقوله، وعمله، وله ملك السماوات والأرض، وما بينهما، ويدبر كل شأن فيها، وبيده الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء من يشاء ويذل من يشاء.

والخوف من الله تعالى يستوجب تنفيذ أوامره - ومنها بذل الجهد في قتال أعدائه -، وترك المنهيات - ومنها الاستجابة للشيطان في تخويفه وما يؤدي إليه من القعود عن ذلك -، {فلا تخافوهم وخافون} لا ترهبوهم ما دمتم تخافونني وتعملون بمقتضى ذلك.

{فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين}

تفيدنا هذه الجملة شيئين:

- أنّ الإيمان يقتضي أن نؤثر خوف الله على خوف الناس.
- وأن سبيلنا إلى ذلك: الإيمان، ومن أجل ذلك ينبغي أن نجتهد في بناء أنفسنا إيمانيًّا.

{إنما ذلكم الشيطان..}.

- شيطان الجن الذي يلقي الوساوس في قلوب المؤمنين ليرهبهم ويسيطر على الكافرين والمنافقين ويستعملهم.

- وشيطان الإنس الذي غش المسلمين وخوفهم ليخذلهم.

{فلا تخافوهم وخافون}

إن نواصي الخلق - كافرهم ومؤمنهم - بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره.

والمؤمن يوقن بهذا، ومن لم يكن بالرتبة التي يدرك معها هذا ويؤمن به ويصدق به.. فليجتهد في الوصول إليها.

وهذا سبيلها: امتثال الأمر والنهي، فإنما يزيد الإيمان بالطاعات والصالحات وينقص بالمنكرات والمعاصي والسيئات.

{فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين}

الإيمان يوجب على المسلم أن يخاف الله وحده، وهذا من لوازم الإيمان يزيد بزيادة الإيمان وينقص بنقصانه، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله.

وما ذلك إلا لأن الخوف: يحجز العبد عن محارم الله ويحمله على أداء حقوق الله.

{إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه}

فهذا العدو الذي تراه إنما هو على هذه الصورة الظاهرة لك بعد تخويف الشيطان، وتزيين الإعلام، وكذب المنافق وجبن الجبان الذي في صفنا، ومبالغة المجرم المكار الذي في صفه..

أما حقيقته المادية فأدنى من ذلك بكثير وهذا ما تظهره المناوشات التي تحصل بينه وبين الصادقين في بعض الأحيان، وحقيقته الأدبية صفر، بل أدنى من الصفر.

{فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين}

يحتاج المؤمن - على الدوام وفي أوقات الشدائد خاصة - إلى من يذكره بإيمانه ليحمى، يكرر عليه ذلك ليجدده، يعيده عليه لينشطه، يعينه باستحضاره ليواجه وسوسة شياطين الإنس والجن.

خير الأوقات: وقت تقضيه مع كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

والقرآن - بلا ريب - أفضلهما: تتلو الآيات أو تسمعها، وتتدبر المعاني وتتذوقها، وتستخرج الفوائد وتدونها، وتحمل الأوامر والنواهي فتمتثلها وتطبقها.

{ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر..}

لو سارع الكافر والمنافق والعاصي في الكفر والنفاق والمعصية فلن يضر المؤمنين شيئًا إذا بذل المؤمن لهم ما عليه من واجب تجاههم وهو النصح والبلاغ والإنذار.

فعندها لا ينبغي له أن يحزن، وعندها ليس عليه هداهم، وعندها عليه نفسه، وعندها لن يؤثر فيه صنيعهم شيئًا.

{يريد الله ألا يجعل لهم حظًّا في الآخرة}

يعلم الله تعالى من الكافر والمنافق والعاصي محبته للشر وإرادته له فيكتب عليه ذلك ويريده منه ويخلقه فيه، إنه يخذله فيسارع فيما فيه هلاكه وهو يحسب أنه يستمتع ويسر في حاضره ويجد ويسعى إلى باهر مستقبله.

فأي حزن ينتاب الداعية على مثل هذا إن هو بذل أقصى ما لديه من جهد في وعظه ونصحه والإخلاص في تنبيهه إلى ما فيه خيره ونفعه فأعرض وتولى؟!

{ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر..}.

أهل الكفر مهما تكثر أعدادهم وتزدد عدتهم ليس منهم خوف ضرر بأنفسهم ولا بمعونة فيه لمثلهم، إنهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، ولا يعود وبال ذلك على أهل الإيمان ألبتة.

{ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر..}

يأسف المرء والله وهو يرى أهل الباطل يتفانون في خدمة الباطل، بينما يتخلى كثير من أهل الحق عن الحق، مع أن قلوب الناس وعيونهم متعلقة بهم ينتظرون ما يقولونه ويفعلونه فيقولون مثل قولهم ويفعلون مثل فعلهم.

هل يدرك أولئك أنهم يحملون أوزارهم وأوزارًا مع أوزارهم؟

{ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئًا..}

مهما يعمل أعداء هذا الدين فلن يعطلوا مراد الله عز وجل له: قد وعد الله بإظهار دينه على الدّين كلّه، ووعْد الله عز وجل نافذ، فليسع المنافقون في تعطيل ذلك وليشتدوا في سعيهم وليعاكسوه بما قدروا وليجتهدوا في معاكستهم ويبذلوا أقصى مقدرتهم، فالله أراد أن يتم نوره فهل يستطيع بشر إبطال مراده وإطفاء نوره!

قروا عينًا وطيبوا نفسًا ولتهدأ قلوبكم وانفضوا عن أنفسكم ما يعتريها في هذه الشدّة، أيها المؤمنون!

{إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان..}

الكافر والمنافق يبيعان الإيمان، والمبتدع يبيع السنة، والعاصي يبيع الطاعة.. يا له من معنى لو التفت إليه المرء وأعطاه حقه.. طاش عقله وذهب لبه ورجف فؤاده.

{إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان.. }

يسلي ربنا تبارك وتعالى نبينا صلى الله عليه وسلم لئلا يحزن، فأخبر بشيء من قبحهم: أنهم اشتروا الكفر بالإيمان، باعوا الإيمان بثمن بخس، وهل يحزن أحد على هؤلاء؟

وإظهار العدو في صورة سيئة يقطع هذا التعلق فيذهب الحزن تبعًا له.

وفي الحديث: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟

فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك.

فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟

فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين.

فيقال: يا إبراهيم، انظر ما بين رجليك، فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار.

{إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان..}.

من العجائب - والعجائب جمة -: أن تعرف الحق ولا تتبعه، وأن تتكلم به ولا تعمله، وأن تدعو غيرك إليه ولا تلتزمه، وأن تقيم الدليل عليه ثم تجعله وراء ظهرك.

{ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئًا}، {إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئًا..}.

كررها الله تبارك وتعالى مرتين اثنتين متتابعتين، فهل بقي لديك شك في أنهم لن يفعلوا!

ثق بالله، إن العاقبة للإسلام وأهله.

{ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين}.

يتأخر النصر على المؤمنين - أو يهزموا -، ويطول عمر عدوهم فتتحقق غايات وحكم محبوبة لله تعالى من حيث آثارها وعوائدها.

- منها - في جانب الكافرين -: أن يقيم الحجة عليهم ويقطع عذرهم وتكثر آثامهم ويشتد عذابهم.

- ومنها - في جانب المؤمنين -: أن يزيد ثواب المؤمنين وتكثر حسناتهم وتضاعف درجاتهم ويعظم نعيمهم.

- {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون..}.
- {ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا..}.

مرحبًا بعمر قصير في عز ثم قتل يكون بعده حياة طويلة ونعيم، ولا مرحبًا بحياة طويلة في مهانة وذل وإثم يكون بعدها عذاب عظيم أليم مهين.

{ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين}

تنظر إلى أحدهم تجده قد طال عمره، وكثر ماله، وتنوع أبناؤه، واتسع جاهه، وارتفع منصبه، ووصل إلى جميع مراداته في الدنيا.. فتحسبه منعَّمًا وتظنه في خير.. وليس شيء من هذا كله نعمة وليس هو في شيء من الخير.

ولو كانت نعمًا حقيقة ثم يصير بعدها إلى عذاب عظيم أليم مهين دائم.. لقلنا: أي عاقل الذي يؤثر هذا النعيم في العاجل ثم يشقى هذا الشقاء في الآجل؟

فكيف وهي نعم في الظاهر ولكنها نقم وآفات في الحقيقة مع المصير إلى هذا العذاب العظيم الأليم المهين؟!

{ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم..}.

فكيف لو كان الذين يحسبون هذا هم المسلمون، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية:

- يمتعهم الله بالقوة والسلطة والمال والجاه، يرضى عنهم، ينصرهم.
- أو يظنون أن الحكم في المعركة للماديات والإعدادات ولا دخل للرب جل جلاله في الأمر.
- وربما دخل الفساد على عقولهم فتوهمت ما هو أبعد من هذا وهذا: أن يكون الباطل هو الحق وأن يكون الحق هو الباطل وأننا مخطئون!

{ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه} أيها الكافرون!

غيرة الله تعالى على القلوب المؤمنة والصفوف المؤمنة أن يخالطها الكفر والنفاق والبدع والمعاصي غيرة عظيمة، أرأيت إلى هذا الجمال وهذا الفضل!

وهذا يطمئن المؤمنين: إن الله معكم على أنفسكم وعلى عدوكم، فاصدقوا الله.. يصدقكم.

{وما كان الله ليطلعكم على الغيب..}

لو اطلع الناس على الغيب لكانوا جميعًا في الإيمان سواء، ولم يكونوا مؤمنين بالله وإنما بأعينهم وما تراه،

ومثل هذا لو عرف المسلم الحكمة من كل قول وعمل أمر بهما الشرع أو نهى عنهما لم يكونوا مؤمنين بالله وإنما بعقولهم وما تراه.
من أجل ذلك كانت صفة المؤمنين الأولى - كما جاء في أول سورة البقرة -: الإيمان بالغيب، ومن أجل ذلك يجيء الحكم الشرعي بوجوب الامتثال له أخبرنا بالحكمة منه أو لم يخبرنا.

{وما كان الله ليطلعكم على الغيب}
كيف يعرف المؤمن حقيقة إيمانه، وكيف يعرف الرئيس أصالة شعبه، والقائد سلامة صفه، والداعية صفاء مجتمعه، والوالد بر بنيه، والصديق محبة صديقه، والزوج إخلاص زوجه؟
أليست المحن هي التي تكشف ذلك كله حتى قيل:
جزى الله الشدائد كل خير
وإن كانت تغصصنى بريقي

وما شكري لها إلا لأنى
عرفت بها عدوى من صديقى

لهذا لم يكن الله تعالى ليترك عباده بغير محن حتى يفرّق بالابتلاء بين مؤمنهم وكافرهم وأهل نفاقهم، بين صادقهم وكاذبهم، بين شجاعهم وجبانهم وشهمهم ونذلهم، وهم في كل واحدة من هذه الصفات درجات ودرجات.
فكانت تلك هي السبيل ولم يكن الله ليطلع المرء منا على الغيب ليعلم هذا.

{فآمنوا بالله ورسله}
هذا سبيل الثبات والصدق والنجاة والسلامة والشجاعة والشهامة: الإيمان على هُدى الرسل الكرام، عندها لن يضيرك كفر من كفر وريب من ارتاب وكذب من كذب.
وإذا لم يكن ثمَّ سبيل لمعرفة ما غاب عنك لن يوحي الله إليك ما اختص به رسله ولن تتمكن من النظر في القلوب لتكشف عما بداخلها.. فكن في أمان الله تعالى يؤمنك وكن على طريقه يسلمك وامتثل أمره يصل بك.

{ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم..}.
كل ما بنا هو من فضل الله تعالى علينا: لم يستحق أحد على الله تعالى شيئًا ولم يكسب بجهده شيئًا، وهذه أول درجات الشكر: أن تعلم أن ما لديك إنما هو فضل من الله عز وجل عليك.

{ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم..}.

قبيح أن يقابل الإنسان فضل الله ونعمته وعطاءه بالإمساك والجحود والبخل، قبيح من الغني أن يمسك عن الصدقة على المحتاجين، وقبيح من القوي أن يمسك عن نصرة المستضعفين، وقبيح من أهل العلم أن يمسكوا عن بيان الحق للجاهلين.

وليت جحود المرء لفضل الله تعالى يتوقف عند هذا الحد، بل نجد من الأغنياء من يتفنن في سلب ما بقي بأيدي الفقراء من قوت، ونرى بعض الأقوياء يعاون الظالمين على حبس الضعفاء وقتلهم، ونسمع بعض أهل العلم يزيف الحقائق الشرعية على الناس ويضلهم!

لا غرو، قال الله تعالى: {إن الإنسان لظلوم كفار}.

هذه الآيات الأربعة:

- {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا..}، وهي في الحياة.
- {ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم..}، وهي في طول العمر.
- {ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم..}، وهي في كثرة المال.
- {لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا..}، وهي في العلم.

جاءت بهذه الصيغة، ولا بد أن يكون بينها - إن شاء الله تعالى - رابط يربطها، ومما فكرت أن يكون هذا الرابط أنه لا ينظر إلى عطاء الله تعالى: {الحياة، طول العمر، المال، العلم) فإن عطاء الله تعالى يصيب الصالح والطالح والمصلح والمفسد، وإنما الواجب أن ينظر فيه إلى فعل العبد:

- هل منحه الله تعالى الحياة فبذلها له أم لا.
- هل أعطاه الله تعالى طول العمر فعمل فيه بما يرضي الله أم لا.
- هل آتاه الله المال فأنفق منه لله أم لا.
- هل أعطاه الله العلم فبين أم لا.

{سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة..}

هذه الصورة مرعبة: إنسان يجمع ما يكون آلة عذابه، إن ذهبًا وفضة .. يكوى بهما، وإن بهائم.. تطؤه بأخفافها وبأظلافها وتنطحه بقرونها، وفي الأصل: ما دعي للإنفاق منه هو فضل الله ليس ماله {يبخلون بما آتاهم الله من فضله}، وهو تاركه ليس مخلدًا فيه {ولله ميراث السموات والأرض}.

#ختمة_تدبر

{سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة}

وردت هذه اللفظة {سيطوقون} كذلك في حديث: «من اغتصب شبرًا من أرض طُوّقه من سبع أرضين يوم القيامة» ومعناها: تجعل أموالهم أطواقًا يوم القيامة فيعذّبون بحملها، ومن تأمل الآية والحديث وجد الجزاء فيهما على الفعلين واحدًا:

- من يمسك ماله فلم ينفق منه.. يجعل ماله طوقًا يوم القيامة فيعذّب بحمله.
- ومن يغتصب مال غيره فلم يسلمه له.. يجعل المال طوقًا يوم القيامة فيعذّب بحمله.

فكأن الآية نزلت البخيل منزلة الغاصب لما حبس المال ولم يؤد حقه، وإلى صاحب المال الإشارة في قوله تعالى: {آتاهم الله من فضله}.

{سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة}

يعرف الغني بين الناس ويشتهر، فإن كان كريمًا اشتهر بين الناس بكرمه إلى جوار غناه، وإذا كان بخيلًا اشتهر ببخله إلى جوار غناه، ويوم القيامة يجازى كل منهما بعمله، شهرة بمدحة وثواب أو شهرة بمذمة وعقاب.

وهذه الآية تذكر شهرة الغني البخيل بالمذمة وتذكر عقابه - أما عقابه فقد أشرت إليه في الخاطرة السابقة -، وأما شهرته بالمذمة ففي قوله تعالى: {سيطوقون} - كذلك - وقد كانت العرب تقول في أمثلتها: تقلّدها - أي: الفعلة الذميمة - طوقَ الحمامة، فهم (يطوقون) يشهَّرون بهذه المذمّة بين أهل المحشر.

{لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق}

- الآية الأولى {ولا يحسبن الذين يبخلون..} في الفرض.
- والآية الثانية {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير..} في القرض.

ويمكن - إذا قلنا: البخل في الآية الأولى هو كتمان العلم بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله تعالى - أن نقول:

- الآية الأولى {يبخلون بما آتاهم الله من فضله..} جحد النبوة إذ لم يتمكنوا من قتل النبي ﷺ.
- والآية الثانية {وقتلهم الأنبياء} في قتل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والله أعلم.

{قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء} {وقتلهم الأنبياء بغير حق}.

هاتان جريمتان:

- الأولى: وصفهم الله تبارك وتعالى وتكرم بالفقر.

- الثانية: رضاهم بما فعل أوائلهم من قتل من قتلوا من الأنبياء وكانوا منهم وعلى منهاجهم من استحلال ذلك واستجازته.

فلم يفرق الله تبارك وتعالى بين الجريمتين: ما قاموا به بأنفسهم وما رضوا به من فعل من كانوا على منهاجه وطريقته.

فالله الله في النيات والطويات والسرائر والكلمات المكتوبة والمنطوقة التي تدعم الكافرين والمنافقين والظالمين فإنك تؤاخذ بها وإن لم تشاركهم بالفعل بمثل ما يؤاخذون هم به وقد فعلوا.

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها وكرهها – وفي رواية – فأنكرها – كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها».

{سنكتب ما قالوا}

اخش ذلك الأمر، أن يسجل عليك القول والعمل، وأن تسأل عنه، وأن تجازى عليه، ومهما يكتب عليك وقت غفلة.. فلتبادر إلى أسباب المحو وعوامل التبديل لتجعل من هزيمتك نصرًا ومن مكر الشيطان بك ظفرًا ومن خسارتك غنمًا.

{ذلك بما قدمت أيديكم..}

هنا في الدنيا مزرعة ذات قيعان بعدد الأعمال يزرع فيها العبد ما يشاء، وهناك في الآخرة يحصد صاحبها ثمارها، إن حلوًا فحلو وإن مرًّا فمر.

وما من أحد يومها إلا ويندم على زرعه، إن كان محسنًا ندم أن لا يكون ازداد منه وإن كان مسيئًا ندم أن لا يكون نزع غرس السوء وزرع الغرس الحسن، ولات حين مندم!

{وأن الله ليس بظلام للعبيد}

وكيف يكون ظلّامًا من هدى خلقه على هذا النحو الباهر: مرة عندما صورهم وهيأهم على الصورة التي بها يستطيعون أداء الوظيفة التي خلقوا من أجلها، ومرة عندما وضع فيهم الفطرة التي تدلهم على ربهم، ومرة عندما أرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب، وأقام لهم الحجج والبينات في أنفسهم وفي الكون وفي كل الأحداث؟!

لقد اقام عليهم الحجة البالغة وقطع كل عذر يمكن أن يعتذروا به.

وفضله وكرمه ونعمه ومننه على العباد تأخذ بأيديهم إليه وهم يأبون ويعرضون وينكرون ويجحدون ويتعدون فيقتلون ويشتمون!

فلو عذب هذا الرب أولئك يكون لهم ظالمًا؟ حاشا.

بل إن من عدله تعالى: أن يعاقب المسيء منهم ويثيب المحسن.

{وأن الله ليس بظلام للعبيد}

وهنا جهتان:

جهة الرب الذي يريد لعبده النجاة والسلامة، ويحب له الفوز والنعيم، فما كان ليظلم عبده إن كان عمل ما يجازى به الحسن أو يدفع عنه به السوء.

وجهة العبد: الذي نسي حقيقته وراح يشتم ويقتل ويسيء ويكتم ويجرم ويعربد ويخون ويكذب.

وكلتاهما تقول: إن عدل الله يقتضي أن يعذب هؤلاء هذا العذاب بمقداره هذا من الشدّة وليس في شدّته إفراط عليهم في التعذيب.

#ختمة_تدبر

{ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد}

التعذيب بغير ذنب ظلم عظيم، وقد أشارت الآية إلى قبحه ونزهت الله عنه، وما أكثر الظلام في كل زمان ومكان!

{فلم قتلتموهم}

كانت بنو إسرائيل تقتل أنبياءها، وفي أمة محمد صلى الله عليه وسلم من يحذون حذوهم فيقتلون علماءهم، والعلماء ورثة الأنبياء - في العلم والعمل والدعوة -، فإن نبينا صلى الله عليه وسلم آخر النبيين فلا نبي بعده.

وفي الحديث: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع».

فلم تقتلوهم سؤال دائم بدوام الوقت حتى تقوم الساعة وبعدها ففي الحديث: «يجيء المقتول متعلقًا بقاتله يوم القيامة، آخذًا رأسه بيده الأخرى فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني!

فويل لقتلة النبيين وقتلة ورثة النبيين من الأولين والآخرين!

تأمل هذه الحجج:

- {لو نعلم قتالًا لاتبعناكم}.
- لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا}.
- {لو أطاعونا ما قتلوا..}
- {إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار}.

تجدها تافهة، لكن الضالين يتمسكون بها في مقابلة الحق الأبلج.

ألم يقل إبليس من قبل في الاحتجاج لعدم سجوده لآدم: {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين} مع أن الأمر من الله تعالى وإبليس يدري أن أمر الله تعالى واجب الامتثال بقطع النظر عن أي شيء آخر؟! لكنه الهوى

وكذلك يفعل الهوى بأصحابه اليوم.

{الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار}.

من يتتبع آيات القرآن في الحوار مع المشركين وأهل الكتاب يجد ظاهرة حاضر في هذا الحوار وهي: اقتراح هؤلاء آيات معينة يطلون تحققها ويخبرون أنها إذا وقعت كما طلبوها أنهم سيؤمنون.

تكرر هذا في سورة آل عمران، الإسراء، الفرقان وغيرها.

والله يعلم إنهم لكاذبون، فلم يجبهم إلى سفاهاتهم تلك، لأن الخطوة التي تلي تكذيبهم هي المحق والإهلاك كما وقع للأمم السابقة.

وفي بعض المواضع المشار إليها أخبر القرآن بهذه الخطوة: {وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفًا}.

{الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار}.

صاحب الهوى لن يعدم التصرف بطريقة أو بأخرى فهو يدور مع هواه.

هؤلاء يهود كتموا نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم: {ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم..} فلما تناثرت الأخبار هنا وهناك وبطلت هذه الحجة قالوا: {إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار}.

ومن الكلمات المضيئة المأثورة عن الشيخ الألباني رحمه الله تعالى: "طالب الحق يكفيه دليل، وصاحب الهوى لا يكفيه ألف دليل، الجاهل يُعلّم وصاحب الهوى ليس لنا عليه سبيل".

{وذوقوا عذاب الحريق}

كلما تساءلت نفسك عن هول هذا العذاب، لم كان وهل هو فوق القدر الذي يستحقون.. عد إلى ما منح الله تبارك وتعالى القوم من نعم ومنن - نبوة وملك وسيادة .. - فقابلوها جميعها بالتكذيب والجحود ولم يرفع من خسيستهم تلك كثرة النبيين الذين بعثوا فيهم ولا فتنة الشدائد التي نزلت عليهم.

وأمام عينيك شاهد صادق على جرائمهم هو هذه الجرثومة التي تسمى إسرائيل، وما تفعله لا يحتاج إلى تذكير.

وكلما تذكرت أن الله عز وجل حرم هذا الجنس السفارة التي كان أعطيها آباؤه بين السماء والأرض - المتمثلة في النبوة والرسالة - بعدما كان فيهم أنبياء بالمئات أو الألوف من الأشخاص، فنقلها إلى غيرهم.. أتصور حجم إجرامهم

{قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين}

تعلل وتعنت وهروب

ومن كان نظيف القلب فكل طيب يدخله.. يزيده طيبًا، ومن كان وسخ القلب فكل ما يدخله.. يصيب من وسخه ولا ينفعه.

ومن أسس بنيانه على الريبة والشك.. فلن يدخله اليقين، ولن تزيده أسبابه إلا شكًّا على شك.

وفي آيات التنزيل الحكيم: {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا}.

#ختمة_تدبر

{.. قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار}.

هذه محاولة بائسة من بني إسرائيل للاحتفاظ بالنعمة بعد أن فرطوا فيها، يريدون استرجاعها بعدما أفلتوها بحماقاتهم المتتابعة.

وقد تقدم في أول السورة قوله تعالى: {قل اللَّهُمَّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير..} يخبر سبحانه أنه سلبهم الخير لما لم تتوفر فيهم مؤهلات العطاء والعزة ورشحت عليهم بدلها مؤهلات المنع والذلة، فمنعهم النبوة ومنحها العرب.

لما مررت بقول الله تعالى: {أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم}، وقوله تعالى: {قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم..}.. أدركت أي نعمة تلك التي أنعمها الله تبارك وتعالى على نبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم في الزمان الأول، وعلينا - نحن المساكين - في هذا الزمان.

لقد كان علماء اليهود مختلفين فيما بينهم - لكل وجهة، ولكل رأي، ولكل اختيار، ولكل مسلك - مما أعطى مساحة ينفذ من خلالها بعض الضوء الكاشف لمن أراد أن يهتدي إلى الحق من اليهود ومن أرد أن يتثبت من بعض الأمور من غير اليهود، فتم ذلك بسبب هذا الاختلاف وإن كان اختلافًا يسيرًا وكانت ثمراته - تبعًا لذلك - قليلة، إلا أنه خير بكل حال.

فلو أنهم اجتمعوا على كلمة واحدة لم يختلفوا في شيء ألبتة.. لكان الأمر شديدًا على من تحتهم من اليهود، شديدًا على غيرهم، شديدًا على المسلمين.
لكن ذلك لم يكن والحمد لله بسبب تلك التوجهات المتخالفة لديهم وتلك الأغراض المتعاكسة عندهم.
هذا عن الزمان الأول..
ثم إني أرجع البصر إلى زماننا هذا وأقلبه في أحبار السوء في زماننا (أحمد، وعلي، وسعد.. إلخ) فأجدهم كذلك بينهم من الخلاف في الآراء والتوجهات والاختيارات - وإن كان يسيرًا - ما نحمد الله تعالى على وجوده، فلو اجتمعوا في كل شيء.. لذهب دين الناس!
والحمد لله رب العالمين.

{الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار}.
لقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم دائمًا على المستوى المطلوب في كل حدث، اقترح هؤلاء السفهاء ما اقترحوا فعلم صلى الله عليه وسلم أنه لو طلب إلى الله تعالى تنفيذ مقترحهم لتعللوا بغيره، وأن الاقتراح لا غاية له، هذا من جهتهم.

وأيضًا علم صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى لا يجيب كل مقترح، وأنه سبحانه لم يجب مقترِحًا إلا وقد أراد تعذيبه، وأنه لا يمهله بعدها إذا لم يؤمن، مثلما فعل بقوم صالح وغيرهم، ولذلك لما قيل له في اقتراح قريش.. أبى، وقال: بل أدعوهم وأعالجهم.
وهذا بعض ما لمحمد صلى الله عليه وسلم من منة في أعناقنا، لا غرو كان من جملة الآيات التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة: {لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم..}.

{فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب والمنير}
إن كان رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه كذبوا مع إتيانهم بهذا وأدائهم له بأفضل أنواع الأساليب والوسائل، وكان في ذواتهم وأفعالهم ما يشهد لكلامهم كأفضل ما يكون.. فمن أي شيء يحزن أحدنا عندما يكذب وترفض دعوته ولس له من ذلك شَروى نقير؟!
بينما المؤمنون يتمتعون برباطة جأش وثبات قلب وروح عالية وشوق إلى سبل رضا ربهم عنهم.

{فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك..}

ما أحوجنا في هذا الزمان - مع اشتداد الأزمات، وتوالي الضوائق، وتمزع الأصفياء، وغفلة الأصدقاء، وكثرة الأعداء - إلى من يحسن تعزية المقيم رغم هذا كله على مهمته، المرابط في ثغره بمثل هذه التعزية الطيبة الجميلة التي تمسح على القلب فتخليه من الهزيمة وتعليه إلى العزيمة وتذهب عنه الكسل وترزقه النشاط والجد في العمل.

استوعب حديث سورة آل عمران عن غزوة أحد كل صغيرة وكبيرة من أمر هذا الحدث الخطير في حياة المسلمين، بداية من الذهاب وانتهاء بالمناقشات التي دارت بعد العودة منها.

وأول درس استفدته من بعد انتهائي من تدبر حديث القرآن عن هذه الغزوة: أن أناقش هزائمي مناقشة طويلة من جميع الجوانب كما أناقش انتصاراتي وأتحدث عنها.

ولعل ما تعيشه أمتنا إلى اليوم من ذبذبة وحيرة وعمى وانحطاط إنما هو بسبب أننا لم نناقش إلى اليوم ((قصة انحطاطنا)) كما ينبغي.

{فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك..}

المصيبة إذا عمت طابت وخفت، على نحو قول الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي

على إخوانهم لقتلت نفس

يحرص الداعية على جمع أسباب الصبر وتأملها والتسلي بها، من حياة السابقين والمعاصرين، يتأسى بهم في هذا ويسلك مثل طريقتهم.

{فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير}

أعظم ما يملكه الداعية هو مصدر الهداية والنور الذي يستمد منه ويمد غيره، ومتى ثبت على يقينه في هذا المصدر واستمر على حاله معه في الاستمداد والإمداد فهو بخير، ولم يهزمه عدوه.

هؤلاء الرسل جاءوا أقوامهم - ومثلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - بالبينات الصادقة والمواعظ البالغة والكتب المضيئة الهادية فكذبوهم، إذن فليس العيب في الرسل فلا ينبغي لهم أن تتزعزع ثقتهم بالمنهج لمواقف الآخرين منه ومنهم!

أما إذا نجح العدو في زحزحة الداعية عن هذا اليقين فإنه يكون قد غلبه، وبعدها سوف يبسط عليه العدو مظلته ويفرض عليه سلطته ويعبده لمقاصده وأهدافه، وبدل الاستبداد من جهة واحدة سوف يمارس معه الاستبداد من جهتين اثنتين: الجهة السياسية والجهة الثقافية.

{وإنما توفون أجوركم يوم القيامة}

يذهب الصالح الذي أقام عمره على الطاعات وربما لم يطمئن به الحال في هذه الدنيا ليذوق المتعة يومًا، ويذهب الشهيد الذي بذل روحه لهذا الدين ولم تطرق سمعه كلمة (انتصرنا)، ويذهب النبي الذي لم يدخر وسعًا في هداية قومه إلا وبذله من دون أن يرى أثر دعوته وجهده حتى إنه يأتي يوم القيامة "ليس معه أحد".

هذا ليعلم الدعاة والمؤمنون أن الدنيا ليست دار جزاء، وأنها سجن المؤمن وجنة الكافر، وأن توفية الأجور إنما هو يوم القيامة.

{فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز}

هذا هو الفوز الحقيقي التام الدائم، الذي ينبغي أن يسعى إليه العبد بكل ما يقدر عليه من جهد وسبب.

إنه الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاز به ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمد، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد ومنه رؤية وجه الله الكريم وهي أغلى النعيم.

{وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}

من يعرف حقيقة الدنيا وما فيها يهن عليه أمرها فلا يرى من يملكها بمنصب أو جاه أو غنى يملك شيئًا، ولا يرى ما فاته منها شيئًا، ولا يرى ما يغريه منها شيئًا.

فبالفكرة في ذلك يهون الأمر، أمر التكذيب وأمر الإعراض وأمر الإيذاء وأمر الفوت وأمر الإغراء وأمر كل شيء.

#ختمة_تدبر

{وإنما "توفون" أجوركم يوم القيامة}

وينبغي أن نعلم أن ما هنالك في القيامة إنما هو تكملة وتتمة للأجر وهو وإن كان النصيب الأكبر والقسم الأعظم والحظ الأوفر إلا أنه ليس كل شيء.

ههنا - أيضًا - أجور ينالها المؤمنون الصادقون في الدنيا، وهي كثيرة، منها:

- لذة العمل مع الله.

- ومتعة البذل لدين الله.
- وأثر التضحية في سبيل الله.
- وسرور ونعيم وحلاوة الطاعة والعبادة والامتثال لأوامر الله.
- ومنها أن العاقبة للمتقين، والنصر للمؤمنين، والأرض لله يورثها لعباده الصالحين.

انتهاء ببشرى الملائكة لهم عندما تتلقاهم وهم على أبواب الدنيا خارجين منها وعلى أبواب الآخرة داخلين إليها: {هذا يومكم الذي كنتم توعدون}.

تلك بعض أجور المؤمنين في الدنيا ثم يوفون أجورهم ويكملونها تامة يوم القيامة.

{فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز}

فهاتان نعمان اثنتان عظيمتان: نعمة النجاة من النار، ونعمة دخول الجنة يذكرنا القرآن الكريم بهما يحفزنا ويرغبنا في الأخذ بالأسباب التي تؤهلنا لذلك.

وهو أمر معهود في الشرع ورد في حديث سؤال الملكين في القبر، وورد في أحاديث تتعلق عن الجزاء في الآخرة.

وهكذا يعدد لنا ربنا المحاسن ويزين في أعيننا الميزات؛ لأنه رحيم بنا ويحبنا.

{كل نفس ذائقة الموت..}

الكل متساوون في الميلاد ومتساوون في الوفاة، والدنيا مجرد لعب ولهو وزينة ومتاع، وما الفائز الحق إلا من زحزح عن النار وأدخل الجنة، فلا تدع شيئًا يشغلك عن هذا.

{لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور}

وها نحن أولاء نبتلى ونؤذى من الذين أوتوا الكتاب من قبلنا (اليهود) ومن الذين أشركوا (النصارى) كأشد ما يكون الابتلاء والإيذاء، ولئن كانت هزيمة أحد استغرقت مدة من عمر المسلمين فإنها كانت مدة يسيرة وقد تعلموا منها الدرس فأخذوا بأسباب النصر.

أما نحن فإن هزيمتنا قد تجاوزت مدتها القرن من الزمان بكثير، ولم نتعلم شيئًا.

وقد دلنا الله تبارك وتعالى على الدواء لحالتنا هذه في ذات الآية فقال جل جلاله: {وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور} ذلك الصبر والتقوى مما عزم الله عليه وأمركم به فهل نعمل بهما؟!

هل نتجرع الصبر ونعمل بالتقوى أم أننا استمرأنا الخنوع واستسغنا خيانة ديننا واستطيبنا العيش الذليل الخبيث؟!

{لتبلون في أموالكم وأنفسكم ..}

لقطات من المشاهد المستقبلية التي لا ينفك عنها الطريق: ابتلاء في المال، وابتلاء في النفس، وأذى كثير، تقول: وطنوا أنفسكم على استقبالها، وتلك نعمة من الله تعالى، أن يسير المؤمن في الطريق وهو يعلم بالعقبات التي ستعترضه خلال ذلك فيستعد لها ولا تتضاعف عليه بعامل المفاجأة إضافة لعامل الحدث.

ونعمة أخرى: {ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا}، وقد مر ذكر الأذى في هذه السورة في قوله تعالى: {لن يضروكم إلا أذى} فهو شيء خفيف، لا استئصال ولا إضرار، إنما هو أذى، ولا يخرج الأذى هنا عن أصله وصفه بالكثرة {أذى كثيرًا} فإنها تعني تنوعه أو تعدده لكنه في النهاية مجرد أذى.

وفي الحديث: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم..».

أي كرم هذا: يعلمنا بالعقبات، ويطمئننا إلى أنها ليست شديدة، ويعدنا النصر في النهاية ويدلنا على طريقه، أي رب عظيم ربنا سبحانه!

ولهذا أقول دائمًا إن كل صورة نظنها سوداء قاتمة تحمل في طياتها النور الذي يبدد هذا السواد ويحيل ليله إلى نهار، أبصره من أبصره وعمي عنه من عمي، والحمد لله وحده.

{وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس}.

فاعجب أشد العجب لهذا الفريق الذين أبرم الله تعالى معهم العهد على القيام بالبيان وعدم الكتمان:

كيف آل أمرهم إلى أن يشبهوا هم المحكمات ويلبسوا هم الحق ويخلطوه بغيره مع أن عهدهم يوجب عليهم:

- بيان الحق وتجليته.
- وذكر الدلائل الدالة عليه وتفنيد دعاوى المناوئين له!

فانقلبوا من جند للحق يعملون له إلى خصوم للحق يعملون ضده.

{وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلًا}.

ما أشق هذه الحال على الدعاة إلى الله تعالى، بينما هو ينتظر ممن يعرف الحق مثله أن يقول به وأن يعلنه وأن يجمل للناس طريقه ويدعوهم إلى سلوكه..

بينما هو ينتظر ذلك إذا هذا العارف لم يبين ذلك كله بل يكتمه.

ولا يكتفي بهذا، بل يزين الباطل في عيون أهله فيستمروا عليه ويشوه الحق في أنظارهم فينصرفوا عنه.
إن مهمته أن يقول للناس:
من هنا الطريق، ادخلوا في الإسلام لتضمنوا النجاة، واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لتكونوا معه في الجنة، وأن طريقه هو طريق من سبقه من النبيين والمرسلين.
فإذا هو يهمل ذلك كله ويخفيه ويلقيه وراء ظهره ويرميه.
وينادي في هؤلاء المجرمين بدل ذلك بما يطمئنهم على مشاقتهم لله ومحادتهم له وبقائهم على الشرك ومنابذتهم للتوحيد وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابه وسنته وأصحابه وأمته.
أي مشقة تلك التي تنتاب أولئك الدعاة فتتزلزل لها قلوبهم وترتاع لها نفوسهم، ولهذا جاء الخبر بها من الله تعالى ليعلموها فلا يتفاجأوا بها عندما تقع وليثبتوا على منهج الله تعالى عندما يضل عنه غيرهم ويصيرون في طريق نصرة منهج الحق وحدهم.

{لتبيننه للناس ولا تكتمونه}

إنها مهمة واضحة غاية الوضوح تتكون من شقين رئيسين:
- عدم إجمال معانيه أو تحريف تأويله.
- وعدم كتمانه أي إخفاء شيء منه.
وقد وقع المجرمون المتأخرون فيما وقع فيه أسلافهم أولئك، فصاروا في جواب الأسئلة الفاصلة إلى إجمال الجواب وتشويه المعاني وتحريف تأويل الآيات، وكتموا الآيات الصريحة وأخفوها حتى لا يفتضحوا.
وكانت النتيجة أن تبلبل من هو على الحق، وعاد إلى الطمأنينة من هو على الباطل بعد ما كان يقلق ويشك!
فبئس ما يفعل أحبار السوء هؤلاء.

{فنبذوه وراء ظهورهم}

فكل من أوتي علم شيءٍ من الدين فكتمه ولم يبينه.. كان فيه شبه من اليهود والنصارى واستحق هذا الذم وأمثاله مما ورد في الكتاب والسنة.

{واشتروا به ثمنًا قليلًا}

كيف يكون حال العالم وقد أبرم العهد مع الله أن يبقى وفيًّا لما علَّمه فيؤدي حقه ثم إنه ينقض ذلك ويلقي به وراء

ظهره، يا حسرته عندما تمضي الأيام وتنكشف عن بصره الغشاوة فتبيَّن له أنَّ ما اعتاض من ذهاب الدين من أعراض هو ثمن خسيس.

{فنبذوه وراء ظهورهم}

هكذا في سرعة وعجلة، لم يتئدوا ولم يتباطأوا، أول ما تمكنوا بمنصب أو بجاه أو بخلو من معارض أو بوجود عاضد .. بادروا إلى نبذ الكتاب بتأويله وتحريفه فيما يستطيعون وبكتمانه فما لا يستطيعون معه ممارسة التأويل والتحريف.

وهذا بدل استعمال ملكاتهم وقدراتهم تلك في نصرة الحق ورفعة شأن الدين {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون}.

{لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا}

يقول أحدهم الكذب على الله يبطل به الحق ويحق الباطل، ثم يفرح بما فعل ويحب أن يحمده الناس على ذلك.

ولم لا، ألم يكن هو أفضل لهم من أهل الحق أولئك الذين يشعرونهم ليل نهار بأنهم على ضلال؟!

ولم لا، أليس هذا هو الذي يطلبونه منه أن يموه بالباطل ويلبس به الحق ويشغل الناس بالزور والجدل فيما قاله ففعل؟!

ولم لا، أليس قد حقق لهم ما يرجونه من السلم المفترى والتعايش المزعوم بهذا الطريق المشؤوم؟!

يفرحون بمعصيتهم، ومخالفتهم أمر ربهم، ويحبون أن يحمدهم الناس بأنهم أهل فهم ووعي وهم من ذلك أبرياء أخلياء.

{ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا}

إن من جملة ما يعين هؤلاء المزورين على مهامهم تلبسهم ببعض ألوان القول والعمل التي ترفعهم في عيون الناس.

وعندئذ فالحال داعية إلى أن يكون له ندوة يتكلم فيها وصور أعمال صالحة يبديها وله منصب يلقي على غيره ال وأن يكون له أتباع يشيعون صوابه ويذيعونه ويبررون خطأه ويوجهونه.

ومن هنا نراهم أصحاب لسان، ويظهرون بمظهر العباد ويدعون الزهادة، وهم رؤوس فرق، ومسؤلوا مؤسسات وهم يحبون أن يحمدوا على هذا أيضًا كما يحبون أن يحمدوا على ما سواه مما تقدم.

{فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب}

إنما النجاة والفوز لمن أصاب، أو أخطأ فاعتذر، أو أخطأ وله عذر في خطئه هذا.

هؤلاء هم الذين يثابون أو يعذرون وينجون من العذاب.

أما الذين لا يستحيون من أفعالهم القبيحة هذه بل ويحبون أن يحمدوا عليها.. فهؤلاء ليسوا بفائزين، ليسوا بماجين ولهم عذاب موجع أليم، بما ضلوا وأضلوا.

{ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير}
تذكرني هذه الآية بأول السورة وفيه: {قل اللَّهُمَّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء..}.
إن القرآن يؤكد على أن ما كان في قدر الله من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته ودعوته سيتحقق رغم كل العوائق.
وهذه الألاعيب والحماقات التي يديرها اليهود والنصارى بغيرهم ويباشرونها بأنفسهم لن تحول دون تنفيذ هذا القدر.
إنه عز وجل لو شاء عاقبهم في الدنيا بما يريد لكنه سبحانه تفضل على خلقه بإمهالهم وفي الآخرة ينتظرهم العذاب الأليم بما يكونوا يكفرون.

{ولله ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير}
على هذا الرب العظيم يتوكل المؤمن وقت البلاء والأذى، وبه يثق في الوعد له والوعيد لعدوه، وبه يستعين عند القول والعمل.
وإذا كان أعداء الدين في فورة توهم الفوز اليوم يعتمدون على قواهم، فإن المؤمن يلمح النهاية التي وعده الله تبارك وتعالى بها فيضحك على ذلك التوهم ويطمئن إلى أن موازين القوى تلك إنما هي بيد الله تعالى وحده، وأنه إذ وعده فإنه منفذ له وعده وينطلق - بعد هذا - في جمع أسباب تحقق هذا الوعد ولا يشغل نفسه بشيء غيره.

في القرآن الكريم آيات عندما أراجع التفسير من أجل الوقوف على معانيها أشعر أن المفسرين - رضي الله عنهم - قصروا في تبيينها وتأملها ولم يعطوها حقها، وبالتتبع التاريخي للتفاسير تحس أن الآخر منهم قد تابع الأول على هذا.
شعرت بهذا وأن أنتقل من تفسير إلى تفسير لفهم قوله تعالى: {ولله ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير}
حقيقة إضافات اللاحقين على السابقين في معانيها نادرة جدًّا، والسابقون لم يتكلموا في جميع معانيها.
ولهذا تخرج بعد قراءة الجميع وأنت جوعان لم تشبع، ظامئ لم ترو، بك داء تلتمس له الدواء.

سرّح نظرك في الآفاق من حولك وتأمّل هذه المخلوقات العظام والتدبير المحكم من المدبر القادر العليم الحكيم الواحد..
هل يمكن لعاقل أن يتخيل للحظة أنه جل جلاله يعجزه نصر من يشاء وثوابه وهزيمة من يشاء وعقابه؟!
أو يمكن لعاقل أن يصدق ما يقوله قائل هنا أو مفتر هناك؟
سبحان ربنا الخلاق العليم.

{إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}.

من النعيم: توفيق الله تعالى للعبد إلى أن يملأ عينيه من زينة هذه الكواكب، ويجيلهما في جملة هذه العجائب، متفكرًا في قدرة مقدّرها، متدبرًا حكمة مدبرها، قبل أن يسافر به القدر، ويحال بينه وبين النظر.
وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم يكثر النظر إلى السماء ويقلب بصره فيها ويتأملها ويتفكر ويدعو مع ذلك ويناجي ربه.
وقد سجل القرآن بعض هذه الأحوال عنه صلى الله عليه وسلم وسجلته السنة واسترعى هذا نظر الصحابة رضوان الله عليهم.

{إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}.
وكأن مقادير هذه الألباب تتفاوت في السعة والرسوخ واللمّاحية بقدر ما يتفكرون في هذه المخلوقات والتدبيرات ويدركون ما فيها من الآيات والعظات وتبعث فيهم من التذكر والتيقظ والتعظيم.

{إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}
هذه الآية في نهاية السورة تعود بالقارئ إلى أوائلها وأثنائها من أجل أن يحاكم معاني السورة كلها إليها..
يحاكم إليها النصارى الذين اتخذوا المسيح ربًّا، والمشركين الذين لم يقصروا في عداوة أهل التوحيد، واليهود الذين أطلقوا ألسنتهم بالافتراء على الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام..
ويتساءل حول أولئك جميعهم - وقد خبر مقالاتهم وعرف مواقفهم واطلع على مآلهم ومصيرهم بعدها -: هل هؤلاء من أولي الألباب؟!

{إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}.
افتح بصيرتك وتأمل فيما حولك، ولا تلهينك المطاعم والمشارب والملابس والمشاغل عن التعرف عليها: من أين أتت، وكيف أتت، ولم أتت، وما الواجب علينا نحوها، ونحو من رزقناها.
قبيح بالإنسان العاقل أن يستوي بصره الأشياء وبصر البهائم!

{إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب..}.
موعظة حسنة طيبة، تدعو إلى التفكر والتذكر وترفع شأن المستجيبين لها، وقد أتت بعد كلام طويل في شبهات ومناقشات أرهقت الروح وأنهكت القلب وآن لها أن تستريح قبل أن تأخذ في جولة جديدة مع سورة جديدة.

إنه ذات الختام الذي ختمت به سورة البقرة، موعظة حسنة بعد جواب عن شبهات وتقرير جملة من الأحكام.
وهذه عادة من عادات القرآن الكريم: الختام بموعظة من المواعظ، ذلك لأن الموعظة هي أهم أغراض الرسالة.

{إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}
إن تلاوة القرآن الكريم مقدمة لتحقيق هدف عظيم هو التفكر في معانيه والتدبر لمراميه والوقوف على مقاصده.
ولا ينبغي أن تكون التلاوة في ذاتها هدفًا للمسلم كما يفعل أهل الكتاب من اليهود والنصارى مع كتبهم.
لقد أضرت هذه المسألة بالمسلمين كثيرًا وآن لهم أن ينأوا بأنفسهم عنها.

وهذه الآيات وما جاء في سياقها من الأحاديث دعوة مشددة إلى هذا، فقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عنها عندما أنزلت عليه: "لقد أنزلت علي آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها".

{ويتفكرون في خلق السموات والأرض..}.
من العبادات التي أهملها كثير من المسلمين - وهي عظيمة الموقع في الدين، بالغة الأهمية، قوية الأثر -: العبادات العقلية.
- ومنها: التفكر - كما هنا في هذه الآيات -.
- ومنها: تدبر القرآن الكريم والسنة المطهرة خاصة الأذكار وأسماء الله الحسنى.

وللعبادات العقلية أمثلة أخرى كثيرة مذكورة في مواضعها، ويكفي أن نتذكر أول آيات أنزلت على نبينا صلى الله عليه وسلم في القرآن، وهي قوله تعالى: {اقرأ باسم ربك..}، وقد أوضحنا أن القراءة مقدمة لتحقيق هدف عظيم هو التفكر والتدبر والفهم والاعتبار فالقراءة - بهذا - عبادة عقلية بامتياز.

{الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم..}.
وليس فوق هذا تيسير وتخفيف، وفيه دلالة على إرادة الخير بنا وعلى محبة ورأفة ورحمة، وهي كلها صفات تأسر القلوب، وتجذب النفوس.

{إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}.
ذكر أولو الألباب في كتاب الله تعالى (١٦) مرة موزعة على (١٠) سور.
- مر معنا ذكر أولي الألباب في سورة البقرة - في ثلاثة مواضع -.
- وذُكروا معنا هنا في هذه السورة "آل عمران" مرتين.

- وسيأتي ذكرهم في سورة المائدة وسورة يوسف وسورة الرعد وسورة إبراهيم - مرة واحدة في كل سورة منها -.
- ووردت في سورة ص - مرتين -.
- ووردت في سورة الزمر - ثلاث مرات -.
- ووردت في سورة غافر - مرة واحدة -.
- وآخر مرة وردت فيها هي في سورة الطلاق - مرة واحدة-.

وحري بالمسلم أن يتدبر هذه المواضع ويتعرف على الصفات الواردة لهم فيها وأحواله، وأن يأخذ نفسه بطريقتهم فيها. وقد كتب شيخنا الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى في هذا المعنى: "أولو الألباب في القرآن الكريم" في كتابه "علل وأدوية" وقراءته نافعة ماتعة.

أولو الألباب في سورة آل عمران
- ورد في أول سورة آل عمران قوله تعالى: {والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب}.
- وفي نهاية السورة الكريمة ورد قوله تعالى: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}.

وقد استوقفني أن الآية الأولى وردت في خلال الحديث عن القرآن (الكتاب المسطور)، والأخيرة وردت في خلال الكلام عن الكون (الكتاب المنظور).

وبين الكتاب المسطور والكتاب المنظور حديث طويل عن أيام من أيام الله تعالى التي يمكن أن تصح تسميتها باسم (الكتاب المأثور).

وبهذا تنتظم السورة الكتب الثلاثة العظمى التي تستنبط منها العبرة (القرآن - التاريخ - الكون) ودار حولها في هذه الناحية حديث القرآن والسنة.

ومن تأمل قوله تعالى: {ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير}.. وجد فيه كمال الربوبية، ومن تأمل قوله تعالى: {الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض..}.. وجد فيه كمال العبودية.

{الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض..}
فالذكر باللسان، والقيام والقعود بالجوارح، والتفكر بالعقل، والقلب يبعث على ذلك كله ويشاركه ويتبعه، فاجتمعت في هذه الآية العبوديات القولية والعملية والعقلية والقلبية.

{الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض..}

ليس للإنسان في هذه الحياة مهمة سوى العبودية، فهو في التوحيد عبد، وهو في القيام بالتكاليف عبد، وهو في عمارة الأرض عبد، قد استغرقت العبودية منه كل أدواته: اللسان والجوارح والقلب والعقل، وكل أحواله: القيام والقعود والاستلقاء.

تدبر القرآن يرسخ اليقين فيه، ما يزال القارئ يتدبر القرآن ويطلع في كل آية على أسرار عجيبة، ويمر مع كل كلمة بدقائق لطيفة حتى يعظم القرآن في قلبه فيصدق بكل خبر ويمتثل لكل أمر، وهل فوق ذلك من خير؟!

{ويتفكرون في خلق السموات والأرض..}

التفكر أعظم طريق إلى اليقين، حتى جعله الإمام مالك اليقين نفسه، روى ابن القاسم عن مالك رحمه الله في جامع العتبية قال: قيل لأمّ الدرداء: ما كان شأن أبي الدرداء؟ قالت: "كان أكثر شأنه التفكّر".

قيل له: أترى التفكّر عَمَلًا من الأعمال؟ قال: نعم، هو اليقين.

{ربنا ما خلقت هذا باطلًا..}

إن المؤمن يفارق الكافر في كل شيء: التصور، والسلوك، والظنون وكل شيء.

ها هو ذا ظن المؤمن، أما ظن الكافر: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار}.

واقتضاء الصراط المستقيم: مخالفة أصحاب الجحيم.

{ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار}.

من فضل الله تعالى على العبد وتوفيقه له ومحبته له الخير: أن ينتبه قلبه لما حوله، وأن يتأثر به تأثرًا سليمًا، وأن يستجيب له استجابة صحيحة تدل على فهمه الرسالة التي أودعها الله تبارك وتعالى الأشياء.

{ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته..}.

فاجتهد لئلا تقع في ذلك الموقف، فإن هتك الستر والفضيحة في ذلك الموقف شديدة، وإن العقاب - وإن قلّ - أليم.

{ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته}

تشعر في هذا الدعاء بحرارة الإخلاص تنبعث من كل كلمة به، وقد نتج ذلك لهم من علمهم بطبيعة الأمور.

إن أحوال أولي الألباب يخدم بعضها بعضًا، فإنهم تأملوا أخبار الله ورسوله عن العذاب وعرفوا شدته فأيقنوا أن من دخله فقد ذاق الخزي، فانطلقت ألسنتهم بالدعاء وشرحه لتتصل لهم الإجابة.

{وما للظالمين من أنصار}.

هكذا يورد الظلم أهله الموارد، به يدخلون النار ويذوقون العذاب وينالهم الخزي، وبه يمتنع عنهم الأولياء والأنصار.

فيا لفوز الأبرار بولاية الله ونصرته وحمايته ووقايته ونعيمه وجنته، فارزقناها يا رب إنك نعم المولى ونعم النصير.

{ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلًا..}.

امتلأ القلب بالثمرات فنطق، وهذا من الأدلة على أن القلب له قول وله عمل، وهذا مما يفرط فيه كثير من السالكين: أقوال القلب وأعماله، رغم أهميتهما البالغة وأثرهما النافع في استقامة القلب وطاعة الجوارح.

{ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا..}.

وهذه الآية مغنم لنا - نحن اللاحقين - فإننا سمعنا المنادي كما سمعه السابقون، وهي أيضًا مغرم فإنها تكلفنا بأن نسمعه للعالمين كما أسمعوه: {لأنذركم به ومن بلغ}.

{أن آمنوا بربكم فآمنا}

بادروا إلى الاستجابة فور النداء: فطرة سليمة، ورغبة صادقة، وعمل دؤوب، وهذه صفة المقربين.

لا غرو رأيناهم يترجون مغفرة الذنوب وستر السيئات والثبات على الإيمان والطاعة حتى الممات.

{فآمنا ربنا فاغفر لنا..}.

من أجاب الله في طاعته أجابه الله في دعوته، وفضل الله تعالى أكبر وأعظم.

{فآمنا ربنا فاغفر لنا..}.

لما بادروا إلى إجابة دعوة مناديه توسموا منه الشكر بإجابة دعواتهم فدعوه وهم موقنون بالإجابة.

{فآمنا ربنا فاغر لنا..}.

فيه التوسل بالعمل الصالح - وهو هنا: الإيمان والمبادرة إليه - من أجل قبول الدعاء وإجابته.

{ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك}

قد يطول الطريق في بعض الأوقات على القلوب المؤمنة وتعلو الابتلاءات سقف صبرها.

وربنا سبحانه وتعالى يتسع حلمه وتعظم أناته ويمتد صبره لأعمال القوم الكافرين.
فيصرخ المؤمنون يجأرون بطلب النصر من ربهم سبحانه:
ربنا أنجز لنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك أنك تعلى كلمتك كلمة الحق، بتأييدنا على من كفر بك وحادّك وعبد غيرك، وعجّل لنا ذلك، فإنا قد علمنا أنك لا تخلف ميعادك.
إنه حلم الرب وعجلة العبد، ومن فضل الله تعالى على عباده أن يجيبهم إلى عجلتهم تلك لعظم رأفته وسعة رحمته وكمال شفقته بهم، كما في الآية الكريمة التي بعدها: {فاستجاب لهم ربهم}.

{بعضكم من بعض}
ما بال هذه الجملة العظيمة التي تجعلنا شيئًا واحدًا في النصرة والمسألة والدين نسيت من حياتنا، وحلت محلها أسماء كريهة، وخطوط وهمية، وأعلام قميئة ودويلات ذليلة جلبت علينا جميعها العار والهزيمة؟!
وا شوقاه إلى وحدة وكفاح وعزة وكرامة ونصر ورفعة، وسلامًا على الدنيا وقتها وسلامًا يغمر القلوب!
يا لُبَيْنَى أوقدي، طال المدى.
أوقدي علّ على النار هدى.
أوقدي يا لبن قد حار الدليل.
أوقدي النار لأبناء السبيل
ارفعي النار وأذكي جمرها
علَّ هذا الركب يعشو شطرها
شرِّدي هذا الظلام الجاثما
أرشدي هذا الفراش الهائما

{فالذين هاجروا
{وأخرجوا من ديارهم
{وأوذوا في سبيلي
{وقاتلوا وقتلوا
وقرأ ابن عامر وابن كثير: {قتِّلوا} - بالتشديد -، قال الحسن: يعني أنهم قطعوا في المعركة.
هذه طبيعة الطريق وهذه ضريبة الوصول، ما كانت العزة والجنة يومًا تبتغى مجانًا.

{ربَّنا

{ربَّنا

{ربَّنا

{ربَّنا

{ربَّنا

فيها مناجاة وابتهال، أقوال وأعمال، رجاء ونداء ودعاء، فكر وذكر، تضرع وإخلاص وإخبات، قلب ولب ولسان وجوارح، ثناء وتوسل واعتراف.. تعليم من الله لنا كيف يدعى وكيف يبتهل إليه ويتضرّع.

{بعضكم من بعض}

الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر، وكلاهما مدفوع إلى العمل المعلق به بتكليف من الله ليقوم به على هدى من الله وهو يرجو عليه الثواب من الله.

ومن هنا ندرك أن التحريش القائم على أساس النسوية والذكورية لغو يراد من إلهاء خلق الله وتمييع أحكام الله.

{فاستجاب لهم ربهم}

الضمير (هم) في {ربهم} من أغلى الضمائر، فلما قالوا: {ربنا} وكرروه في الابتهال خمس مرات جاءهم الرد: {فاستجاب لهم ربهم} من باب التكريم لهم عطفًا على اللفظ الذي قالوه، فلم يقل: فاستجاب لهم الله، وإنما قال: {فاستجاب لهم ربهم}.

{فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم..}.

لما سألوا المغفرة وتكفير السيئات والثبات حتى الممات على طريق الأبرار.. دلهم على السبب الذي به يصلون إلى مرادهم وفيه تحقيق مقصودِهم.

{لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد}

ما تراه أمامك من امتلاك الكفرة القرار، يتصرفون في شؤونهم وشؤوننا كيف شاءوا، مع مساعدة المنافقين منا لهم في ذلك.. لا يجعلك تيأس.

ولا تعودن بهذا على الله ودينه فتلك عادة المنافقين، الذين يقولون عند الشدائد: {ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا}.

فإن التقصير منا والتفريط من قبلنا وبه تأخر عنا النصر وسلبنا العز.

وهذا شيء لن يدوم بنا، ولن يدوم لهم ما هم فيه.

{لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد}

هذا التمكن والتسلط والتصرف بحسب المشيئة والاختيار الذي عليه الكفار فتنة، وأي فتنة، تعصف بالقلوب وتدير الحدق في العيون وتخلب العقول!

وقديمًا دعا إبراهيم وقومه: {ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا}.

ودعا موسى وقومه: {ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين}.

فتنة لمن لا يعرف قدر هذا التمكن ووزنه وحقيقته وقيمته.

{متاع قليل}

وكذا ما يقابله من بؤس المسلم وضيقه قليل، ثم تأتي كلًّا منهم عاقبته فيقول الكافر: ما رأيت نعيمًا قط، ويقول المؤمن: ما رأيت بؤسًا قط.

فانظر إلى الأمر بعين بصيرتك ويقينك ولا تنظر إليه بعينك بصرك ومشاهدتك تره على حقيقته.

{متاع قليل..}

هكذا سيراه كل من جعل موضع نظره الدنيا والآخرة، العاجل والآجل، المزرعة والحصاد، وأما من ينظر إلى هنا فقط تحت قدميه، أو إلى المرحلة دون التي تليها، أو الانتكاسة دون الصحوة فإنه يقع تحت ضغط نفسي وأدبي يضمحل مع يقينه ويذوب به إيمانه.

{وما عند الله خير للأبرار}

نعم والله، هو خير مما عند الكافرين، وخير مما في الدنيا بأسرها، وخير من كل شيء يتصوره الخيال.

نعيم باق بلا زوال، وكثير بلا فناء، ومتنوع بلا ملل، وخالص بلا كدر، وصاحبه خالد فيه بلا موت.

{نزلًا من عند الله}

فهم ضيوف الكريم جل جلاله يحفهم بلطفه ويخصهم بكرمه وجوده.

فاذهب بخيالك كل مذهب ولن يمكنك تخيل ما يقدم لهم، ويكفي في ذلك أنه على قدره وقدرهم.

{وما عند الله خير للأبرار}.

وما عنده سبحانه هو فوق هذا النعيم، وليس فوق نعيم البدن إلا نعيم الروح، وأغلاه وأعلاه: رؤية وجه الله الكريم.

{لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا}.

ضحَّوا بالغالي والنفيس، فلم تغرَّهم الدنيا ومتاعها، لعلمهم بأنه قليل وأنه للكافرين إملاء وإمهال.

{أولئك لهم أجرهم عند ربهم..}.

على قدر تضحياتهم ينالون أجورهم، وأجورهم عند ربهم، وقد ضحى هؤلاء تضحيات عظيمة، برئاسة ومال ووطن وقرار وتاريخ وربما زوجة وولد وعُمر.

{خاشعين لله}

استكانوا لربهم وخضعوا وتواضعوا وخشعوا.. لم يمنعهم ماضيهم وأنفسهم وأقوامهم من اتباع الحق، وتركوا الرئاسة والمال وانضموا إلى موكب الإسلام مع المسلمين وساروا سيرتهم.

{إن الله سريع الحساب}

ما وعد الله أو أوعد به سيكون، ولا ينبغي أن يظن أحد أن الله تبارك وتعالى يبطئ على من يستحق بما يستحقه من خير أو شر في الوقت المناسب له..

وعلى المؤمن الصبر والعمل بالتقوى.

{يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله..}.

وصبر المسلم على شؤونه، ومصابرته في معاملة غيره، وإقامته على التيقظ الدائم لعدوه من الإنس وعدوه من غيرهم .. هو طريق الفلاح.

{يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون}.

أمر بالكفاح في ميدانين: ميدان النفس وميدان الحياة، ومعركة مع فريقين: العدو الباطن والعدو الظاهر.

وهذا العدو الظاهر يلتقي المسلم في مجالين: مجال الشبهات وهذا طريقه الحوار، وميدان الحرب وطريقه الجهاد.

{يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا..}.

وليعلم المؤمنون أن الكافرين والمنافقين والمبطلين يصبرون هم كذلك على باطلهم ويعدون لنصرته كل ما يستطيعون، ولهذا يحتاج المؤمنون إلى نفس طويل فإن هذه المصابرة يفوز بها أطول المتصابرين نفسًا وأثبتهم وأشدهم وأقواهم وأقدرهم.

وهذا مما تفيده صيغة {وصابروا ورابطوا}.

خير الكلام كلام الله تعالى، والمشتغل به خير الناس..

- من يتعلمه، ومن يعلمه، ومن يحفَظه، ومن يحفِّظه، ومن يتدبره، ومن يعمل به، ومن يفسّره، ومن يحث على ذلك، ومن يساعد في شيء من ذلك.